٣٦

مجلة
روايات أحلام

عِتاب

www.rewity.com/vb
بلاعنوان

مجلة روايات أحلام

عتاب!

كان ماضي لورا مورلي قد غفا سنتين كاملتين لم تستطع خلالهما تذّكر ما حدث خلال حياتها السابقة.

عندما التقت سايمون باركلي شعرت شعوراً مخيفاً أن له يداً في ما أصابها. لكن هذا الغريب اقتحم غمار ذكرياتها وفرض نفسه عليها كأنها ملكه وحده.

من يكون ولِمَ تخشاه؟ ولماذا هي منجذبة إليه انجذاب الفراشة إلى النار؟

15207

لبنان ١٥٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦ د.	مصر
سوريا ٥٠ ل. س.	قطر ٦٠٠ ر.	المغرب
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ٥
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ٧ ر.	عمان ٦٠٠ ب. / العراق

١ ـ امرأة لا تريد الماضي

ـ كان يجب أن ترافقينا لورا! فالمسرحية رائعة. وآه.. كان ديك بارني ممثلاً عظيماً!

رفعت لورا رأسها إلى زميلتها مبتسمة، ودخلت إلى الغرفة لتضيء المصباح.

ـ أكانت المسرحية بالروعة التي هي عليها الرواية المكتوبة؟ لقد تعرضت الرواية لعاصفة من النقد، والمسرحية ما زالت تعرض منذ زمن، أليس كذلك؟

أطول الفتاتين اللتين دخلتا إلى غرفة جلوس الشقة، ابتسمت وهي تغرق نفسها في مقعد ذي ذراعين، ثم شرعت تخلع حذاءها:

ـ المسرحية رائعة، والتمثيل عظيم.. وهيلين على حق، ديك بارني ممثل رائع.

رفعت زميلتها صوتها ساخرة وصوّبت نظرها إلى هيلين شريكتهما في الشقة.

ـ لقد مات ميتة جميلة، فبكت عليه هيلين ما يملأ دلواً. الجلوس إلى جانبها في مسرحية درامية كمن يجالس قطيعاً من الحيتان، يتدفق الماء من فتحات تنفسها.

ضحكت هيلين.

ـ حتى أنت تبللت عيناك كايت، بل أظن أن الجميع بكى، كانت

كمسرحية يونانية أو كإحدى مسرحيات شكسبير التراجيدية... مثيرة للعواطف. لقد لاحظت عدة رجال يختلسون النظرات إلى الآخرين وهم يتمخطون.

- إنه لفعل مناسب في ليلة ربيعية دافئة!

لورا مورلي، فتاة انكليزية، لها الوان الفتاة الإنكليزية المثالية، أو ربما ملامح الفتاة «الشمالية الإسكندناقية»، فهي ذات شعر فضي، وعينين صافيتين رماديتين كالسُحبْ، نادراً ما تظهر بين سكان جنوب بريطانيا، أما أهدابها وحاجبيها فبنية. تبدو للرائي جميلة ليس بسبب تقاسيم وجهها التي ينقصها جمال الشكل الحقيقي، بل لأنها تمتلك جاذبية لا تقاوم، ووجهاً أبيض يزيده شحوباً فم له خط منتظم غريب.

بينما كانت تتحرك برشاقة في المطبخ الصغير لتعد القهوة، كانت تصغي إلى رفيقتيها بابتسامة تلوي شفتيها. وليست هي المرة الأولى، التي تشعر بأنها محظوظة لأنها تتشاطر الشقة مع فتاتين لطيفتين مثلهما. كايت عملية رزينة، وهيلين ذات إحساس مرهف للمرح والحياة.

قالت لورا:

- سعيدة أنا لاستماعكما بها... من مؤلفها؟

- إنه مؤلف الرواية الأصلي... سايمون باركلي.

قطبت لورا جبينها، وكأنها تلاحق ذكرى مراوغة، وتمتمت:

- سايمون باركلي؟.. يبدو لي الاسم مألوفاً.

تناولت كايت فنجان قهوتها وقالت:

- إنه كاتب شهير بالطبع.. لقد كتب رواية تدور أحداثها في العصور الوسطى عن جماعة من المنبوذين، وقد صورت حلقات تلفزيونية، أتذكرينها؟

ردت هيلين:

- بل كانت قوية في قساوتها... فالرجل ساخر متشائم، لكن هناك دائماً شعاع من أمل يتركه في نهاية رواياته. لقد ألّف روايات عديدة، كانت كل رواية أنجح من سابقتها.. صحيح أن النقاد لا يقارنونه بشكسبير كصديقتنا المتسرعة هذه لكنهم قد يفعلون لو لم يكن شكسبير في نظرهم مقدّساً.

جلست لورا في كرسيها:

- قرأت عنه في مكان ما. هل شاهدتما شخصاً نعرفه في المسرح؟

- نعم فرانسيس باركر، بصحبة رجل رائع.. لكنها لم تكن متصنعة كما هي عادتها.. مع أنني لا أعتقد أن لزينتها التأثير المعتاد.

ضحكت لورا:

- وكأنك لا تحبينها.. هل سرقت منك أحد أصدقائك؟

- أجل.. حين كنا في المدرسة، لكنني لا أكرهها لهذا السبب. بل لأنها متكبرة وتكبرها هذا قد يجلب الجنون لأمها تدريجياً، والسيدة باركر امرأة محبوبة.

ارتفع حاجب لورا ساخرة:

- ألم تقدمكما له؟

ضحكت رفيقتيها، وقالت هيلين:

- صدقيني لورا.. الأمر غريب: كانت متأرجحة بشكل واضح بين إظهاره، وجلب حسد النساء لها، وبين إبقائه بعيداً لئلا تختطفه إحداهن منها.

- وكيف كان شكله؟

- أوه.. أسمر، قاتم الشعر، ليس أسود تماماً، بشرته سمراء قد

لوحتها الشمس، وقسمات وجهه خشنة، عليه سيماء الفطنة والذكاء... وهو إلى ذلك وسيم جداً.. خاصة ذلك الفم ذي الجاذبية النادرة التي كانت كايت في طفولتها تسميها «جاذبية حيوانية».

صاحت كايت محتجة:

- لم أستخدم في حياتي مثل هذا التعبير! ما بك لورا.. مصابة بصداع؟ تبدين شاحبة قليلاً.

فابتسمت لورا:

- أجل يا ممرضتي.. إلا أنه صداع خفيف.. نادراً ما أصاب بمثله في هذه الأيام.

- حسناً.. إلى الفراش إذن، وفي الغد يمكننا جميعاً الراحة. ما رأيكن بالذهاب إلى البحر؟ إذا كان الطقس مناسباً بالطبع.

وكان الطقس رائعاً... فعند الضحى بددت شمس الربيع الدافئة السحب من السماء، وما كان في الصباح الباكر هواء أصبح الآن نسيماً هامساً يهب عبر القناة الإنكليزية من جهة الأطلسي غرباً جالباً معه لمحات من الصيف.

كن قد قررن الذهاب إلى وايت كوف، على شاطىء جزيرة وايت غرب جزيرة بورت سي الواقعة على بعد عدة أميال من مدينة بورتسموث، حيث استقر المغامرون القادمون عبر القناة الإنكليزية قبل مئات السنين، بالقوارب التي كانوا يصنعونها بأيديهم.

هامبشاير، مقاطعة جميلة جداً.. كانت السنتان اللتان أمضتهما لورا في ميناثها الرئيسي «ساوثمبتون» سنتين رائعتين، فلا أحد قد يكون ألطف من زميلتيها هيلين وكايت، وقد أصبح لديها بسبب صداقتهما، دائرة واسعة من المعارف المهمين.. وهي تتمتع كذلك بالعمل في محل الأنتيكات.. وحياتها مرضية تماماً.

اليوم الدافىء جلب معه إلى الجزيرة عدداً كبيراً من المتنزهين الذين هم في معظمهم مجموعات عائلية، لكن كان هناك عدد كاف من الشبان والشابات، أضفى على مساحة الرمال الواسعة جواً عابثاً.

حصّنت لورا نفسها بزيت خاص ضد الشمس بسبب بياض بشرتها الشديد، وذلك قبل أن تتمدد على منشفتها. وكانت هيلين قد انضمت إليها لتتمتع بأشعة الشمس، أما كايت فقد تظللت تحت قبعة كبيرة لتقرأ كتاباً.

بعد قليل قاطعت هيلين السكوت المحيط بهن لتتمتم:

- لا تنظرا الآن، فها قد وصلت فرانسيس، يصحبها ذلك الرجل الساحر.

فتأوهت كايت:

- يا إلهي! ألا تستغل تلك الفتاة محاسنها كثيراً؟!

ردت هيلين متنهدة:

- تلك الفتاة تثير في داخلي أسوأ المشاعر.. سأجبرها على تقديمه لي.

فصاحت لورا:

- هيلين.

لكنها تأخرت، وكان عليها أن تراقب زميلتها تقف باندفاع طفولي، لتلوح منادية:

- فرانسيس! فرانسيس باركر!

اضطرت فرانسيس إلى الالتفات إليها، متجهمة الوجه. كان من عادة فرانسيس التعلق بذراع من يرافقها، لكن يبدو أن هذا المرافق يرهبها لدرجة الابتعاد عنه.

جلست لورا، ومدت يدها إلى سترتها، بعد أن اجتاح عينيها

القابعتين خلف نظارة ذعر شديد. إنه... يبدو.. مألوفاً لها! إنها موقنة من أنها تعرف هذا اللون الأخضر القاتم في عينيه، كما تعرف هذه الابتسامة، وحركة شفتيه الساخرة تلك... لقد شاهدت هذه الابتسامة من قبل... وتألمت منها.

ادعت فرانسيس العبوس وهي تدنو منهن.. لم يصدر عن الرجل ما يشير إلى أنه يعرف لورا، لكنها أحست بأن نظراته عدائية تجاهها، ولم تدهش حين سمعت أن اسمه سايمون باركلي.

صاحت هيلين بذهول:

ـ الكاتب الروائي المسرحي؟

نظر إليها وابتسامة ساخرة تحرك خط فمه المستقيم:

ـ هو نفسه... ألم أشاهدك في المسرح ليلة أمس؟

فقالت كايت ساخرة:

ـ إن لم تكن قد شاهدتها، فقد سمعتها.. لأنها كانت إحدى الباكيات، العاصفات بينهن!

فضحك، ثم راح ينظر إليها ممعناً:

ـ يسعدني أن أعرف أن مؤلفاتي تحرك مشاعر الآخرين حتى درجة البكاء. وهذا دون شك دافع قوي للغرور.

والتفت إلى لورا:

ـ ألم تكوني معهما آنسة.. لورا؟

ـ لا.

كان ردها قاطعاً ومختصراً، إذ لا داعي إلى تقديم أي تفسير.

ران صمت مرتبك قطعته فرنسيس قائلة:

ـ حسناً.. ربما من الأجدى لنا الذهاب الآن سايمون.

ـ وهل أنت علي عجل؟

كان رده مقتضباً، لكن وجه فرنسيس احمرّ حرجاً، فأحست لورا

لسبب ما بالأسى عليها.

ـ لا.. بالطبع لا.

فدعتهما كايت قائلة:

ـ اجلسا معنا إذن. لورا، أنت الأقرب إلى سلة الطعام، هلا قدّمت لنا ما نحتسيه؟ فالطقس حار!

كن قد جلبن معهن زجاجات كبيرة من العصير، صبت لورا العصير في أكواب بلاستيكية ثم قدّمتها إلى الجالسين وعيناها ثابتتان عليها لئلا تندلق.

تنهدت هيلين سعيدة:

ـ رائع! اخبرني سيد باركلي، ما الذي حملك إلى هامبشاير؟ أتعمل على تأليف رواية أخرى؟

ـ في الوقت الحاضر.. لا. لكنني أظن أن لدي فكرة رواية... أنا أزور شقيقتي هنا، فهي وزوجها يملكان مزرعة مواشي.

قاطعتهما فرانسيس شارحة:

ـ في ريف هامبشاير.

سألته كايت:

ـ وهل ستكون مادة الرواية مستوحاة من منطقتنا؟

ـ ربما في جزء منها.

كانت عيناه غريبتي اللون: إطار ذهبي يحيط البؤبؤ المشع بلون أخضر قاتم غريب، ولأنه لم يكن يضع نظارة، استطاعت لورا أن تراه بشكل أفضل.

شعورها الذي ألح عليها بأنه مألوف لديها، عاد يدغدغ أعصابها. لكن، ربما شاهدت صورته في مجلة أو صحيفة، فهو صاحب قسمات يصعب نسيانها. نعم هي قسمات قاسية لا تستطيع أن تقول إنها جميلة، ولكن لصلابتها تأثيراً كبيراً على

الأعصاب. . . أعادت بصرها إليه فوجدته ينظر إليها نظرة باردة لم تستطع قراءة ما فيها. إن له دون الشك القدرة على كشف ما يريد فقط من خلف هذا القناع المثير.

حولت لورا وجهها إلى قناع لطيف أيضاً ثم أعرضت عنه حتى لم يعد يرى إلا استدارة فكها، وذقنها الصغير المستدير. لكنها لم تدرك أنها بذلك تكشف عنقها المديد الجميل، وأهداب عينها الطويلة القاتمة بالنسبة لبشرتها البيضاء.

لقد ساعدها حظها لأنها لم تضطر إلى المشاركة في الحديث، فقد كانت كايت وهيلين تتابعانه بنجاح. . وسمعت كايت تقول:

ـ فكرنا القيام بتمثيل رواية «الحصاد» لكننا عدلنا عنها إلى رواية «العمة العجوز»، لأنه لم يكن في النادي عدد كاف من الفتيات لتمثيل الرواية.

فابتسم:

ـ وهل أنتن جميعاً ممثلات؟

ـ أنا وهيلين فقط. . أما لورا فتحضر حفلة الافتتاح فقط.

أحست لورا بعينيه تحدقان إلى جانب وجهها. وحين تكلم كانت نبرات صوته منخفضة، حميمة، وكأن الثلاثة الأخريات لا وجود لهن:

ـ ألست مهتمة. . آنسة مورلي؟

اضطرت إلى الالتفات، وقالت دون اكتراث:

ـ لا موهبة لي، سيد باركلي.

حدقت فيها فرانسيس ببلاهة وحيرة:

ـ لكن كيف تعرفين؟ فهذا مستحيل بوجود الإعاقة.

ران صمت غريب، هزت بعده لورا كتفيها من غير اكتراث:

ـ ذاكرتي ممتازة لمعظم الأمور.

ـ فقدت ذاكرتك، فكيف تتذكرين؟

ردت لورا بلطف:

ـ لا أذكر شيئاً عن حياتي قبل سنتين، أمّا ما بعدهما فأذكره جيداً.

ـ حظ مشؤوم. . ! ألا تظن هذا سايمون؟

على الرغم منها، أعادت لورا نظرها إليه فصُدمت مرة أخرى لأن قشعريرة اجتاحت جسدها.

وقال معلقاً:

ـ يبدو وكأنك كيفت نفسك تماماً، آنسة مورلي.

لامست بسمة قلقة شفتيها:

ـ لا مجال لشيء آخر يفعله المرء في هذه الحالة. . إذا فقدت الذاكرة، فيعني أنك فقدتها، ولا سبيل إلى استرجاعها.

ـ ربما لا ترغبين في استعادتها.

توترت في لحظات قليلة كل عضلة في جسد لورا، وشحب لونها. لكنها علمت أنه لاحظ تماماً ردة فعلها على ملاحظته. . . ردت بخفة:

ـ ربما. . فالله وحده يعرف ما هي الأسرار التي أخبئها. قد أعرض عليك تجربتي لتتخذ منها مادة رواية سيد باركلي، لكنها ستكون مملة.

ـ سأكون أنا الحكم على هذا.

جعلت لهجة التحدي في نبرات صوته العميق، رأسها يرتفع. . ورأته يبتسم، لكن ابتسامته كانت عميقة كما نظرته. .

قالت كايت بطريقة فجائية:

ـ من أين تأخذ مواد وأفكار رواياتك سيد باركلي؟

كانت محاولة خرقاء لكسر التوتر الذي لا تفسير له، لكنه سمح

لها بأن تغير الموضوع. وقال دون أن ينظر إلى سواها:

ـ اسمي سايمون.. أنا أعرف جيداً عن تاريخ المنطقة وأهلها وعاداتهم وأعلم أن التعارف يتم بالأسماء الرسمية، لكنني أحب أن ادعى باسمي الأول.. أما بالنسبة للأفكار فأنت تشهدين لتوك فكرة وليدة جديدة.. وشكراً لك لورا.

لم تكن لورا بحاجة إلى نظرة فرانسيس الحارة لتقتنع بأنها أخطأت.. فهي كالحمقاء تحدّته، وقبل دون تردد، ويتحدّاها الآن أن ترفض. أرادت أن تهب واقفة وتهرب منه.. لكن إلى أين؟ ليس لها مكان تذهب إليه.. فأرخت أعصابها وأقنعت نفسها بأن لا مجال للخوف منه. فما من أحد يستطيع أذيتها أو إيلامها إلا إذا سمحت له بذلك وهي لن تسمح بأن يقترب منها في أي حال.

قاطعتهم كايت، بصوت هادىء تحاول التخفيف من الذعر الذي اجتاح وجه لورا:

ـ فلنناقش الموضوع مع فيليستي مارلو.

رفع سايمون حاجبه متسائلاً، فسارعت كايت إلى التفسير:

ـ إنها الطبيبة النفسانية التي تراقب حالة لورا، والتي تقول لها كل ستة أشهر إنها طبيعية تماماً!

فتدخلت فرانسيس بلهجة مقصودة:

ـ إلا أنها لا تتذكر ما قبل السنتين.

والرسالة التي قصدتها هنا كانت واضحة: ابتعدي عنه! إنه لي! احتفظي به! ظنت لورا في لحظة مرعبة أنها تفوهت بأفكارها لكن كايت قاطعتهما مرة أخرى، لتغيير دفّة الحديث، إلى دفّة الإنتاج الجديد لرواية «ماكبث» في لندن، وبدا أن سايمون أخذ يتمتع بهذا الحديث.

رجل من هذا النوع له الحق أن يكون واثقاً من نفسه.. فلديه

كل شيء: الموهبة، العقل، وشخصيته تمثل تحدياً لأية امرأة.

بعد هذا، لفت الشمس نفسها بخمار مرتفع من غيوم شفافة، حجبت بشكل فعال الكثير من حرارتها الدافئة، مما جعل الجميع يقرر العودة من حيث أتوا ما دام البحر يسمح بالإبحار. أما بالنسبة للقاء آخر فلم يذكر شيئاً عنه.

قالت كايت والقارب يمخر عباب البحر نحو خليج شبه جزيرة ساوثمبتون التي يحدها البحر من جهة وملتقى نهري «نست» و «انشن» من الناحيتين الأخريين.

ـ لم يعجبك الرجل يا لورا.

ـ ليس بشكل خاص.

ضحكت هيلين:

ـ أليست في مظاهر الرجولة تلك مبالغة؟ أتدري فرانسيس في أي فخ وقعت؟

قالت كايت:

ـ ما فرانسيس إلا جريئة متكبرة... تستحق أن تقع في الفخ.. مع أنني سأشعر بالأسى عليها. فهي لا تعلم حقيقته! ولا ترى أبعد من أنفها، بل لا ترى أنه يغالي بما تدعوه هيلين «الجاذبية الحيوانية».

قالت هيلين:

ـ أعتقد أنه لم يعجبكما.

فابتسمت كايت:

ـ أوه.. لقد أعجبني، لكنه لا يشكل خطراً بالنسبة لي. وماذا عنك لورا.

ـ إنه متكبر جداً... فلتحتفظ به فرانسيس.

قالت كايت:

ـ لا أظنه مهتماً بفرانسيس، لأنه لم يشح بصره عنك يا لورا لحظة.

ابتسمت لورا تخفي تعبها:

ـ ربما يحب الشقراوات، أو ربما يسعى إلى أن أقص عليه معلومات تفيده لتأليف قصة عن شخص فاقد الذاكرة. وأتساءل ما إذا كان باستطاعتي المطالبة بأرباح؟

في طريق العودة إلى المنزل بالسيارة، صرفا الوقت في التفكير بمقدار هذه الأرباح وكيف سيصرفنها. لكن، في المساء، قالت كايت دون مقدمات:

ـ فلنذهب إلى فيليستي مارلو لتعاينك لورا... ولنسألها عما إذا كانت تسمح بأن يسبر ذاك الوسيم المتكبر أغوار نفسك.

سألت هيلين مذهولة:

ـ أتظنينه قد يفعل؟

ـ ربما.. فقد لاحظت أنه يملك رغبة عارمة للتجربة. ثم، قد يجد جمال لورا مرضياً، أراهن على أنه سيمتص كل ما في ذاكرتها، لكنه في الوقت نفسه سيحاول اكتساب ودها وقلبها.

تضرّج وجه لورا.

ـ أتخالينه يفكر في هذا؟

ـ طبعاً.. الرجال جميعهم يفكرون على هذا النحو، لكن ربما تكون الطريقة مختلفة مع الوسيم المتكبر.. وأنا أراهن على أن القليلات يقلن له «لا».

تمتمت لورا، وهي تفتح علبة شريط تسجيل:

ـ ثمة مرة أولى دائماً.

دست الشريط في الآلة فصدحت الموسيقى الناعمة في جو الغرفة. وسألتها كايت بعد أن لاحظت ارتجافها:

ـ أتحسين بالبرد؟

هزت لورا رأسها نفياً، وجلست في الكرسي تصغي إلى الموسيقى.. كايت وهيلين فتاتان عزيزتان على قلبها، كانت لورا أحياناً تعتقد أنها لولاهما ولولا دعمهما في السنتين الماضيتين لجنت. إنهما دائمتا القلق عليها.. واهتمام سايمون باركلي بها أقلقهما، خاصة كايت. كانت تشعر وكأنهما شقيقتان أكبر منها سناً، دون أن يكون هناك المشاحنات التي ترافق عادة الحياة الأسرية. لكنها كانت تعرف أنه ليس في حياتها الماضية المختبئة داخل عقلها شقيقات أو أشقاء. لهذا، تحس بالسعادة لأن لها الآن شقيقتين.

إلا أن هذا لن يدوم طويلاً.. فالفتاتان تنويان الزواج قريباً. وهنا يكمن سبب قلقهما، لأنهما لا يريان أن بمقدورها العناية بنفسها كما يجب.. وخلف تصرفهما هذا يكمن أمل بأن تستعيد يوماً ذاكرتها. لكن لورا نفسها فقدت الأمل... فمنذ استيقظت في ذلك المستشفى، عرفت أن ذاكرتها ولّت إلى الأبد... إذ لم يبرز أمامها بصيص نور، قد يضيء لها درب الماضي المظلم، إلا أنها كانت تحس أحياناً بأن أشياء تمر أمامها الآن قد مرت فيما مضى... كما كانت تحسّ عندما تزور بعض الأماكن بأنها كانت فيها قديماً، وقد راودها هذا الشعور ثانية حينما رأت سايمون باركلي. ولأن هذا كله لم يكن يقودها إلى أي شيء، تعلمت ألا تفكر في مثل هذه الأمور رافضة الضغط على ذاكرتها التي ثبت أنها مراوغة.

ترى، لماذا يهتم بها سايمون باركلي ولديه فرانسيس.. لم يعجبها هذا الرجل ولا نظراته المتكبرة المصممة الممعنة فيها.

إلا أن سوء حظها جعله يظهر أمامها، في المحل الذي تعمل فيه وذلك ظهر اليوم التالي، دخل من الباب وجو من يملك الدنيا

حوله. جالت عيناه الخضراوان في المحل، حتى استقرتا أخيراً على لورا التي كانت تتناول خاتماً من علبته لتعرفه على امرأة.

قالت الزبونة تحاول دس الخاتم بالقوة في اصبعها:

ـ أحب الياقوت جداً.. أيمكن تكبير حجمه قليلاً؟.

ردت لورا:

ـ طبعاً.

ـ لكنه في الواقع ليس ما أفكر فيه، إنه صغير.. سأتركه، شكراً لك.

استدارت لورا إلى سايمون الآن، وقد كان أمامها بضع دقائق من التحذير. وسألته:

ـ ماذا أستطيع أن أريك؟

فابتسم.. لكن عينيه بقيتا بارقتين كالزجاج الأخضر.

ـ ما هذه اللهجة المتزمتة؟ أليس من الأفضل وضع هذا مكانه.

حين كان يتحدث رفع الخاتم، بسرعة لم تتوقعها ثم دسه في اصبعها، وأبقاه حيث هو بقوة وقساوة.

ـ ماذا تفعل؟

لكنه استمر يمسك بيدها ويمنعها من تحريكها. فهمست يائسة، والصدمة في صوتها ويدها على صدغها:

ـ دعني وشأني!

ـ أيؤلمك رأسك؟

ـ لا.. لا.. لا يؤلمني.

بما أن مقاومتها له لا تجدي، تركت يدها في يده بقلق، ترتجف والخوف يكتسح نفسها، خوف لم تعرف سببه. قال مبتسماً، وكأنه يعني كل كلمة مما يقول:

ـ الدرس الأول: لا تقاوميني لورا، لقد اعتدت على الكسب

ولن أتوقف عن هذه العادة الآن.

إنه تهديد ساخن، لكنه ترك يدها. فأعرضت عنه تبحث عن مفتاح الخزانة، خائفة من أن يتقدم ويفتحها لها.

انتظر حتى أعادت الخاتم الجميل إلى مكانه، ثم قال وكأن شيئاً لم يحدث بينهما لتوه:

ـ أريد هدية لشقيقتي.. عيد ميلادها في الأسبوع القادم.

ـ وماذا تريد لها؟

ابتسم ساخراً:

ـ زوجها يشتري لها الحليّ. لكنها تهوى جمع الخزف الصيني والزجاج. وأنت تعرفين ذوقها.

ردت بذهول:

ـ أعرف ذوقها؟

ـ أجل.. إنها روزماري دالتون.

ـ أوه!.

وضحك، فرقت القسمات القاسية من المرح:

ـ لا أستغرب دهشتك.

وكيف لا تدهش.. فروزماري دالتون مخلوقة صغيرة الجسم أنيقة ناعمة، ليس بينها وبين أخيها الصارم القسمات رابط إلا.. ربما... العينين.. عيونهما متشابهة! دائرة ذهبية، وبؤبؤ أخضر قاتم، ذو أطراف سوداء... لكن، بينما هاتان العينان تظهران سايمون كطير جارح صائد، كانت عينا شقيقته تخلوان من القساوة.

روزماري ساحرة، بينما شقيقها خطير، لذا من الخير لها أن تتخلص منه بسرعة. فقادته إلى خزانة مقفلة وقالت:

ـ لدينا مزهرية تعود إلى القرن السابع عشر.. نعم هي ليست أثرية، لكنها رائعة الجمال.

حملت المزهرية بأناملها التي بدت بيضاء شفّافة أمام لونها الوردي المائل إلى البنفسجي.

ـ جميلة جداً.. سآخذها.

لم يرف له جفن حين سمع سعرها الباهظ وكانت لورا قد اعتقدت أنه محكوم على هذه المزهرية بالبقاء في مكانها مدة طويلة.

انتظرها بهدوء، وهي تلف بعناية القطعة الرقيقة وسألته:

ـ أتريد لفها بورق خاص بالهدايا؟

ـ بالطبع.

ـ هاك إذن.. أرجو أن تعجبها.

ـ لا شك في أنها ستعجبها.

لا معنى لهذه الكلمات، لكن لماذا سببت لها جفافاً في فمها، ولماذا تتجنب النظر إلى عينيه اللتين كأنهما تخفيان عنها ذنباً ما؟

أحست بالراحة حين أطل عليهما صاحب المحل من الغرفة الخلفية ليقول لها:

ـ حان وقت الغداء، أليس كذلك لورا؟

كان سايمون ينتظرها حين خرجت من غرفة الملابس.. ما اشتراه موضوع تحت إبطه بطريقة عفوية، يتأمل سيفاً اسبانياً أثرياً... حالما وصلت إليه، سار إلى جانبها دون أن يقول شيئاً. وعندما وصلا إلى الشارع... قال لها:

ـ أليس رجلاً لطيفاً؟

ـ لا بد أنك بدوت له أهلاً للثقة.. فجورج مالڤن ليس بالغبي.

ـ وهل أبدو أهلاً للثقة؟

ردت ببرود:

ـ لا.. أظنك خطراً.

ارتفع حاجباه بسخرية:

ـ أتؤمنين بالاختباء خلف التفاهات؟ لماذا أبدو لك خطراً؟

ـ لا أحسبك تهتم كثيراً برأيي فيك.

وصلا إلى مفترق الطرق، فقالت بسرعة:

ـ أنا ذاهبة في هذا الاتجاه، وداعاً سيد باركلي. لعل ما تبقى من عطلتك يكون ممتعاً.

أمسك بمعصمها، بشكل غير معقول، ليمنعها من التحرك:

ـ ليس بهذه السرعة.. اقبلي دعوتي على الغداء.

لم تؤلمها قبضته، لكن بشرتها تحت أصابعه انكمشت فقالت بهدوء:

ـ اتركني.

ـ أتركك حين توافقين على الغداء.

ولم يظهر عليه أي خوف من غضبها الظاهر:

ـ لا..

ـ لماذا؟

ـ لا أريد.

ـ أتساءل من منا له إرادة أقوى؟ لأنني أريدك أن تتغدي معي.

أحست أمام نظرته الساخرة ببوادر ضحك وكأنه يدعوها لمشاركته بنكتة ما. فأخفضت عينيها ونظرت إلى أصابعه القوية. ربما لاحظ ضعفها، فقد رفع يدها الرقيقة وقبل شرايين معصمها قائلاً:

ـ أرجوك لورا.. أعدك بأن أحسن التصرف.

قالت لاهثة:

ـ لماذا لا تتغدى مع فرانسيس؟. فهذه العلاقات ليست لأمثالي!

ـ ولأمثال من هي؟

ابتسم وهو يقودها عبر الشارع حيث نظرت إليه عدة فتيات لم يأبه لهن ولم يعرهن اهتماماً..

حين لم ترد قال:

ـ ظنك بها سيء.

ـ لا أعرفها.

ـ وما تعرفينه عنها لا يعجبك؟ عجباً، لماذا؟ ألأنك تنظرين إليها كنوع من التهديد لك؟

توقفت وسط الرصيف فجأة، فاصطدمت بامرأة عجوز تحمل كيس مشتريات ضخم، وقالت له:

ـ اوه.. بالله عليك ما هذا كله؟ لا شأن لك أبداً في أن تعرف ما أشعر به تجاه فرانسيس باركر... أو تجاه أي كان! ألأنك كاتب، تجد أنه من حقك التطفل على حياة الآخرين وأفكارهم؟.. حياتي أو أفكاري ليست حقاً مشروعاً لك سيد باركلي.. فما في داخلها مكان خاص لي.

ـ أنت تسدين طريق المارة.

وابتسم بسخرية وهي تنتزع ذراعها من يده، لكنها لم تفهم لماذا وجدت نفسها تجلس قبالته في مطعم صغير كانت تسمع عنه فقط، لأنه فاخر ومرتفع الأسعار...

قالت له، بعد أن أبعدت لائحة الطعام دون اكتراث:

ـ لست جائعة.

ـ يبدو وكأنك لا تأكلين ما يكفي. كم عمرك لورا؟

ـ عشرون.

ـ إذن كنت في الثامنة عشرة حين فقدت ذاكرتك.

ـ هذا واضح.

ـ أتحسين بعدم الراحة للكلام في الموضوع؟

ـ لا.. الأمر كالحلم... يبدو أنني وقعت عن سلم، أثناء قراءة مجلة.. وحين استيقظت، كنت في ظلام كامل.

ـ هل تذكرت اسمك؟

ـ لا.. لكن حين قالوا «لورا» بدا الاسم مألوفاً.

ـ وماذا تذكرين بعد؟

ـ عن نفسي.. لا شيء.. لكنني أذكر، أو على الأقل أعيد تذكر كل ما تعلمته في المدرسة، إذ أعرف أسماء الكتب التي قرأتها، وأعرف أنواع الموسيقى، وأذكر أسماء الأفلام والمسرحيات.

ـ لكنك فقدت أحداث حياتك.

ـ أجل.. هذه فقط.

ـ وهل من الممكن استعادة ذاكرتك؟

سرت قشعريرة باردة فوق بشرتها:

ـ لا... لو كانت استعادة ذاكرتي ممكنة، لرُدَّت إلي حتى الآن. اوه! الطبيبة لم تقل هذا قط.. لكنني فهمت أنها لا تأمل كثيراً.

ـ وكأنك غير مهتمة باسترجاعها.

ـ ولِمَ أهتم وأنا سعيدة في حياتي هذه؟

ـ أيعني هذا أنك لم تكوني سعيدة من قبل؟

اشتدت قبضتها على كأس الشراب، بعد أن عبقت الكلمات في الهواء، كريهة، مؤلمة:

ـ لست أدري!

بعد لحظات صمت قال بلطف:

ـ من الغريب أن أحداً لم يسأل عنك.. لا شك في أن الشرطة أعلنت عن حالتك... أو سألت، أو أي شيء.

ـ لست أدري.

أحست بالرقة في نظرته وعاودتها القشعريرة في اللحظة التي وصل فيها غداءهما.. وكان الطعام لذيذاً.. اكتشفت أنها جائعة، لذا تناولت وجبة ممتعة. وما ساعدها على تناولها أنهما تحدثا عن مواضيع غير شخصية.

قال لها:

ـ هذا الطعام أفضل من علبة «لبن رائب» وتفاحة.. أليس كذلك؟

فابتسمت:

ـ لا تفاحة بل برتقالة، وحتى أحدِّد أكثر.. حبة «مندرين».. ألا تمانع شقيقتك في ابتعادك عنها خلال اليوم؟

ـ روزماري تعرفني جيداً لذلك لا يدهشها شيء أفعله. إنها امرأة رائعة، مشغولة دائماً، ببيتها وبالمزرعة وبزوجها وطفليها... ثم إنها تعلم أنني سأغيب لأشتري لها هدية.

ـ علاقتك مع أختك غريبة.

ـ وأين الغرابة؟

فضحكت:

ـ لست أدري، إن قولي ذاك لسخيف.. ربما بدت لي كذلك لأنك بدوت لي مكتفياً بنفسك.

ـ تربيتي جعلتني أتخذ لنفسي طريقاً إلى الإكتفاء الذاتي. كان والداي يؤمنان بأن المدرسة الداخلية هي الرد على مشاكل النظام كلها.. وحتى أكون منصفاً.. كنت قذراً شقياً في طفولتي. لذا أبعداني في سن مبكرة.. ومنذ ذلك الوقت ما عدت أرى عائلتي إلا في الإجازات والأعياد. وهذا يجعل الروابط العائلية غير متقاربة.

ـ وكأنك تشعر بالمرارة من هذا الوضع الذي كان.

هز رأسه:

ـ أحسست بالمرارة مدة طويلة، ثم بعد عشر سنوات أو ما يزيد، عدت إلى المنزل.

ـ وبعد ذلك...

ـ كان والداي قد أصبحا عجوزين.. كانت المدرسة الداخلية درساً قاسياً لي.. قبلها كنت أسخر من قول إن لكل مسألة وجهين.. بعدها عرفت أن الأمر صحيح.

أخافها كلامه هذا فنظرت إليه، حابسة أنفاسها ثم أطلقتها متنهدة ووضعت فنجان القهوة من يدها.

ـ وهكذا، الحسن ما تكون نهايته حسنة.. والآن علي الذهاب، لقد حان أوان عودتي إلى العمل.

نظر إليها سايمون بالحدة التي تكرهها منه، لكنه لم يوقفها. وحين وصلا إلى المحل، لم يدهشه توقها إلى الابتعاد عنه. كانت وقحة في لهفتها إلى وداعه، فلوت فمه ابتسامة ساخرة وقال بهدوء:

ـ سأراك ثانية.

وأعمى الشك بصرها، لكنها هزت رأسها، وشكرته على الوجبة، قبل أن تسرع إلى الداخل.

* * *

٢ ـ هل أعرفك؟

فيليستي مارلو هي المشرفة على حالة لورا منذ أدخلت فاقدة الوعي إلى المستشفى.. هي امرأة متوسطة العمر نحيلة، وهي كمعظم الأخصائيين النفسيين، يصعب انتزاع تصريح ثابت منها بصدد أي شيء، خاصة بصدد لورا.

رفعت بصرها إلى الفتاة الجالسة قبالتها، وفي عينيها عطف:

ـ تعرفين أن ليس في مقدوري الإجابة عن هذا لورا، فليس لدي فكرة عما إذا كان من المحتمل أن تعود لك الذاكرة... نحن هنا نتعامل مع الدماغ، وثمة مناطق منيعة فيه ما تزال مجهولة لنا.. ولمَ الاهتمام المفاجىء؟

ـ قال لي أحدهم إن فقدان الذاكرة نوع من الهستيريا.. ويظنني هذا الشخص موضوعاً مثيراً للدراسة.. لكن كايت أصرت على أن أستشيرك قبل أن أوافق.

ـ وهل تعلم؟ قد يكون فقدان الذاكرة نوعاً من الهستيريا إذا أحببت وصفها هكذا، إنها نظام دفاعي. عادة تتلاشى في بضعة أيام أو أسابيع.. وأحياناً، كما في حالتك تدوم طويلاً. لكن ثمة احتمال وارد في أن تعود إليك الذاكرة.. في بعض الأحيان قد تتطلب دافعاً، منشطاً، دفعة صغيرة في الاتجاه الصحيح. ولهذا حاولنا اكتشاف ماضيك. لكنك، لم تكوني متحمسة.

هزت لورا رأسها، فلمع شعرها تحت أشعة الشمس:

ـ أجل.. أذكر هذا. إنه غريب، لكنني أحسست بالتعب وأردت يومها أن أنام.

ـ هل فعلت شيئاً بشأن ذاكرتك منذ ذلك الحين؟

بدا على لورا الاستغراب:

ـ لا، فأنا.. حسناً، حين قال الشرطي إنهم لم يجدوا شيئاً عني تركت الأمر كما هو.

ـ ألم يتبادر إلى ذهنك أن رد فعلك هذا غير عادي؟

مررت لورا طرف لسانها على شفتيها، وشمّت رائحة القرنفل تتعالى في الجو من مزهرية الطبيبة.

قالت بصوت مبحوح:

ـ أعتقد ذلك، لكن لم يبلغ أحد عن أنني مفقودة. لا بد أنني كنت وحيدة في هذا العالم، فما من أحد بحث عني.

ـ وما من أحد اهتم بك كذلك، وما من أحد في المنطقة كان يحمل اسمك. كنا نصطدم بالفراغ أينما اتجهنا، وكأنما اختفت كل آثار تدل عليك.

ـ وكأنني مجرمة مختبئة!

فابتسمت الأخصائية:

ـ فليهنأ بالك.. الشرطة قامت بما في وسعها، ولم تجد دليلاً يشير إلى تورطك بأي شيء مريب. لكن.. لسبب ما... أعتقد أنك لا ترغبين في أن يعرف أحد مكان وجودك... ولهذا أوصد عقلك الباب على حياتك الماضية... وما زال يوصد عليها.. والرد على ما أنت فيه يكمن في الماضي.

ـ الماضي الذي لا يسمح عقلي بخوضه، خوفاً مما قد أجدا.

ـ بالضبط.. على الأقل هذا ما أعتقده.

فكرت لورا قليلاً، ثم قالت:

ـ أتظنين أن من المستحسن التحدث عن الأمر مع السيد باركلي؟

ـ لورا.. لن أقدّم لك نصيحة، فأنت على ما أعتقد قوية الآن لتتحملي ما قد يظهر أمامك، دون أن تتداعي. قد لا يكون الأمر ساراً، لكن لديك القوة والشجاعة. فلقد كنت في الماضي بحاجة إلى الراحة التي وهبك إياها فقدان الذاكرة. وإذا أردت أن تتذكري الآن، فعليك إقناع عقلك الباطني بأن استرداد الماضي لن يؤذيك.

ـ أتظنين أن علي المحاولة؟

هزت المرأة رأسها:

ـ القرار يعود إليك فقط.. حتى الآن كنت منجرفة.. وهذا الرجل جعلك تفكرين جدياً في استرجاع الذاكرة. وهذا دليل حسن... ما شكله؟

ـ قوي الشخصية.. ممن تسمعين عنه ولا تصدقين.. هو ذكي.. وحذق جداً.

ـ وكأنك عرفت عنه أموراً كثيرة في فترة وجيزة.

ـ أجل.. أليس الأمر غريباً؟ لكنه.. اوه.. يجعل من نفسه، موجوداً.

تمتمت فيليستي:

ـ لدى بعض الناس هذه الموهبة.. الشخصية والسحر، أو ما شابه. وهو يعمل في مجال مثير للاهتمام.. وأذكر أن له حصة لا بأس بها من المنظر الحسن.

ـ اوه.. إنه مخلوق مؤثر.. مثل الصقر، رأسه كله زوايا مسطحة ليس فيه استدارة، حتى ذقنه مربع. أما عيناه فخضراوان غامقتان، لا لمعان فيهما وكأنهما «الجاد». لا يمكنك النظر إليهما وقراءة أفكاره..

لامست قشعريرة بشرتها، وتوترت أعصابها حين قفزت تقاسيم وجه سايمون الكئيبة القاسية أمام عينيها، فابتسمت لتنهي كلامها:

ـ إنه ليس من الطبقة التي قد تعجبك، وكأنه يعرف عن الجحيم كما يعرف عن باحة منزله الخلفية.

كان هذا كلاماً غريباً، لكن فيليستي لم تدهش، بل سألتها بإلحاح:

ـ وكأنك غير معجبة به عزيزتي..

ـ ومن يعجب بالسيد باركلي؟.. إنه من النوع المكروه.

ـ أو المحبوب.

هزت لورا رأسها، وابتسمت لتخفي الهاجس المنذر الذي تملكها.

ـ لا... الحب لا يمكن أن يكون حباً إلا إذا كان متبادلاً؟ سايمون باركلي لم يحب قط في حياته، وأنا واثقة من هذا! فلديه قوة السحر، لا القلب الدافىء.

ـ أي أنه رجل... يُحسّ به!

ـ اوه.. أجل... ومن يدري قد تتجسد تجربتي في عمل روائي له.. عمل يتعلق بفتاة مجهولة.

ـ يا فتاتي العزيزة.. لست مجهولة حتى وإن لم تعد إليك ذاكرتك.. فكري جيداً قبل أن تشجعيه.. وسامحيني على ما سأقول: أنت لا تبدين خبيرة في أمور الحياة. وإذا كانت ذاكرتي جيدة بالنسبة للشائعات، فسايمون باركلي ليس بالرجل الذي قد أرغب في أن تتورط ابنتي معه.. فمن يتورط معه يخسر.

بعد عدة أيام من هذا اللقاء، لم تدهش لورا حين خرجت من المحل في الساعة الخامسة فوجدته ينتظرها وهو يتكىء على سيارة. حين شاهدها، استوى في وقفته وتقدم نحوها، فقالت وهي

تحس بنظرته تثبتها في مكانها لتمعن النظر فيها:

ـ مرحباً!

ـ مرحباً.. اقبلي دعوتي على العشاء.

عضت على شفتها ساخطة:

ـ أنت لا تعطي إنذاراً مسبقاً!.

ـ نعم أم لا.. قرري حالاً.

أحست بسخطها يتزايد.. ماذا يحسب نفسه حتى يعاملها وكأن عليها أن تشعر بالامتنان لدعوته؟ اهتزت عضلات فكها، وقالت بحدة:

ـ لا.. شكراً لك.

فرد ساخراً:

ـ آه.. ها.. هناك إذن مخالب حادة تحت هذا القناع الناعم، ادخلي إلى السيارة لأوصلك إلى المنزل.

ترددت لورا لحظات، فمهما كان تصرفه مريباً، فمن الغباء أن ترفض إيصالها إلى المنزل. لكنها سألته ببرود:

ـ أهذه عملية اختطاف؟

فابتسم:

ـ أجل، فاليوم عيد ميلاد روزماري التي تريدك معنا على العشاء.

التفتت إليه وهي تلف حزام الأمان في السيارة:

ـ لماذا لم تذكر هذا أولاً؟ حقاً.. إنك أكثر الرجال إثارة للغيظ! لن أستطيع الذهاب بملابس العمل.

ـ كان يمكن أن أرافقك إلى منزلك لتبديل ثيابك.

ـ أوصلني إليه الآن إذن.

فابتسم:

ـ لا.

ـ اوه.. أنت تثير الجنون!

ـ الدرس الثاني! أنا شديد الدقة حين يتعلق الأمر بتنفيذ ما أريد.

ـ ولماذا التخفيف من حدة الوصف، لماذا لا تقول إنك كثير الوسوسة في دقتك هذه.

أضحكه كلامها هذا. لكن ترى أمرحه هذا حقيقي أم لا؟ مد يده إلى يدها القابعة في حجرها، فلما رفعها إلى فمه أحست بطرف لسانه على راحة يدها، فاهتز جسدها وهي تشعر بموجات من الأحاسيس مخيفة في قوتها.

انتزعت يدها منه، وأبعدت وجهها باتجاه النافذة لئلا يرى تأثير لمسته عليها... بعد لحظات استرخت، فلاحظت أنه يتجه غرباً نحو الخط الساحلي.. كان الريف هناك شديد الرقة كثير الاخضرار، فالأشجار بدأت تزهر وأوراقها راحت ترتدي ثوبها الأخضر من جديد. أما العشب بين المراعي فأخضر كثيف.

قال لها سايمون دون تركيز:

ـ صهري مزارع، يربي الخراف والأبقار.

ـ وكيف التقى بأختك؟

ـ كانت في ساوثمبتون في رحلة عمل... لم أسألها قط عن لقائهما، لكن مما قالته، علمت أنهما كرها بعضهما بعضاً في البداية.. لكن الجميع تعجبوا مما انتهت إليه علاقتهما.

ـ لكن شقيقتك لا تبدو عاصفة المشاعر!

ـ المظاهر قد تكون خداعة، فقد تبدو لك لعبة، لكنها قادرة على افتعال عاصفة متى أرادت. وهي بحاجة إلى يد ثابتة قوية، ولن تجد أثبت من يد دان.

ـ إنك تظهره شخصاً سيء الطباع.

ـ فلنقل مثلاً، إنني لو وقعت في مشكلة، لن أفكر في اللجوء إلى أحد سواه.

تبين لها، أن دان دالتون رجل قاس قوي كما وصفه سايمون تماماً، وقد يماثله في القساوة. فهما يشابهان بعضهما بعضاً بطريقة مذهلة. فكلاهما يمتلك تلك الثقة الشديدة بالنفس، النابعة من معرفتهما الوثيقة الباردة عن قوة أو ضعف من يواجهان. إنهما مخلوقان فائقا القوة.. عندما كانت تصافح دان وجدته رجلاً مرحاً. وذلك رغم برودة عينيه السوداوين اللتين بدتا دافئتين حين حطتا على زوجته التي ابتسمت وقالت للورا، بتفهم:

ـ إنهما يطغيان على كل من يقف إلى جانبهما، تعالي إلى غرفة الاستقبال، أضرمت النار مع أن الأمسية دافئة.

بينما كانت تتحدث بسهولة رافقتها إلى غرفة كبيرة، فُرشت بذوق رفيع. ففيها تحف أثرية وأثاث عصري، وهي جميعها تناسب عائلة دالتون التي قطنت في هذه المنطقة منذ أجيال بعيدة، فروزماري إنما تزوجت أحد أبناء الطبقة الأرستقراطية.

مرت الأمسية بشكل مستساغ، كانت أثناءها روزماري من أكثر النساء فتنة وكياسة، أما زوجها فاحتفظ بأفكاره لنفسه، ولم يتحدث كثيراً. أحست لورا بالتوتر من جرّاء تحديق سايمون المستمر إليها، فهو لم يبعد بصره عنها حتى عندما كان يتحدث إلى شقيقته وزوجها.. بدا العشاء بشكل إجمالي ناجح، فثمة ضحك كثير، وحديث مرح. وقد تمتعت لورا به رغم اضطرابها، وما جعلها تطمئن قليلاً أنهم عاملوها حسناً وكأنهم لا يعرفون شيئاً عن فقدانها الذاكرة.

تنهدت روزماري وقالت:

ـ لن أتعود أبداً على الربيع في هذا المكان.. فأنا أحب أن يأتي مع الربيع ضجة صاخبة، وسماء زرقاء، وأزهار صفراء وبيضاء ونرجس.. فالنرجس ينمو خلال الشتاء في همبشاير والخراف والأبقار تلد في نيسان، وحدها الأشجار تزهر في أوائل الربيع. ألا تفضلين ربيع الشمال لورا؟

ابتسمت لورا وردت بهدوء:

ـ لست أذكر... لكن الربيع هنا رائع. إذ تبدو الأيام فجأة أطول، والأشجار تصبح مورقة. والهواء رقيقاً منعشاً.. وأنا أحب الطقس هكذا.

فتدخل سايمون:

ـ لورا ليست قلقة أبداً لأنها فقدت الذاكرة.

أبدت روزماري الارتجاف:

ـ لن أكون هادئة لو كنت مكانك.. وأنت دان؟!

ـ إنه وقف تماماً على نوع الذكريات.

قادهم قوله هذا إلى طرق قصة شهيرة تتناول موضوع فقدان الذاكرة ثم تفرع الحديث إلى أشياء عامة عن الثقافة في العالم. علمت لورا أنها أدهشتهم بسعة اطلاعها على الأعمال الروائية والأدبية العالمية، وبعد قليل من النقاش تقبلوا معرفتها هذه.

ومع ذلك أحست بالسعادة لانتهاء الأمسية، فللمرة الأولى تختلط بأناس خارج إطار المستشفى ممن يعرفون حالتها، ولا يعلقون عليها. فهذا يجعل الحياة أيسر لها.

قالت ماري روز:

ـ يجب أن تزورينا ثانية لورا.

ـ شكراً لك.

لكنها لم تلتزم بتكرار الزيارة..

بالنفس. راحت تتساءل بذعر كيف تحسبه مهتماً بها وهو على هذا القدر من الشر.

ابتلعت ريقها تحس بأنها تكاد تتقيأ، وبأنها غبية، ثم تأوهت لا إرادياً فسألها بخشونة:

ـ ما بك؟ هل أنت مريضة؟

أوقف السيارة بسرعة، ودون أن يطفىء الأضواء الأمامية استدار ليضيء المصباح الداخلي كي يشاهد قسمات وجهها المتقلصة ضيقاً:

ـ لورا... ما الأمر؟

كانت لحظة الوهن قد طفقت تتلاشى، فسألته بخشونة:

ـ هل كنت أعرفك؟!

لم يتغير شيء، لم تتحرك عضلة واحدة في ذلك الوجه القاسي الأسمر، لكنها أحست بارتداده وكأنه دفعها عنه حتى أحست بالألم.

ـ لا.. لا، لا تعرفين شيئاً عني. لا شيء أبداً.. ولِمَ السؤال؟

كان التنفس العميق يساعدها دائماً. لذا أغمضت عينيها وراحت تتنشق الهواء برتابة وببطء حتى ارتد عنها الخوف والألم معاً.

بعد دقائق ردت:

ـ آسفة لما حدث... أخاف كثيراً حين أصاب بهذا الغثيان الذي يبعثه الخوف.

حرّك السيارة من جديد، وقال بهدوء:

ـ ولماذا الخوف؟ يجب أن تكوني سعيدة باستعادة ذاكرتك.

مسحت بحذر وجهها بمنديل، وجففت راحتي يدها الناضحتين عرقاً.

ـ لا. إنني أخاف إن تذكرت شيئاً، أن أجد نفسي في لجة

قال لها سايمون في السيارة وكأنه يقرأ أفكارها:

ـ دان معجب بك... إذن أنا السبب.

ـ ماذا تعني؟

ـ ألا تعلمين؟.. تعجبك فيل، ودان معجب بك، وهذا يعني أنك لا تثقين بي، ولهذا لم تلتزمي بدعوة شقيقتي؟

ـ وهل كان الأمر واضحاً؟

ـ وهل أنت قلقة إن كان واضحاً أم لا؟

فتنهدت:

ـ لا أحب أن أكون فظة، فلقد كانت لطيفة جداً معي.

ـ إنها روح لطيفة، بل إنها من فئة نادرة من الناس لن تتكرر.. فلقد أسرت اهتمامها، كما أسرت اهتمامي.

انكمشت بشرة وجهها حول فكيها متوترة، لكنها تمكنت من وضع بعض المرح في صوتها حين ردت:

ـ أسرت اهتمامك المهني، كما أرجو.

ـ ولماذا؟.. هل أخيفك؟

ـ قد أكون فاقدة الذاكرة، لكن غرائزي ما زالت حية، وكل غريزة أملكها تحذرني منك.

فضحك:

ـ قلت لي هذا من قبل. وضّحيه أكثر.

ـ أنت تعرف جيداً ما أعني! فأنت قاس كجلد السوط، وقاطع كحده ومؤذ مثله.

ـ لا أوافقك الرأي على هذا الخليط الوصفي.. فالجلد لا حدّ له ولا شك في أنك اكتسبت بعض الخبرة في الحياة بعد فقدان الذاكرة لتتعرفي على نوعي بسرعة.

كانت السخرية في صوته مؤلمة، وهذا ما جرّدها من الثقة

سحيقة في الجحيم لا أستطيع الخلاص منها، أشعر وكأنني أعيش على حافة لجة عميقة، تضيئها أشعة شمس برّاقة، آمنة دافئة وجميلة، بصحبة أشخاص لطيفين. وإذا فقدت توازني أشعر بأنني سأقع من فوق الحافة إلى أعماق الجحيم.

ـ وهل أنت واثقة بأن ما في أعماق عقلك الباطني بغيض؟ قد تكون حياتك الماضية عادية سعيدة، فيها عائلة، وأصدقاء، وأحبة. وربما لم تفقدي الذاكرة إلا لحادث ما وقع.

أطبق جمال المناظر حولهما على خناق لورا، فقالت بصوت أجش:

ـ قد تكون على حق... لكن من الظاهر أن أياً من هذه العائلة، أو الأصدقاء، أو الأحبة، لم يهتم ليعرف ماذا حلّ بي.

ـ وهذا ما يؤلمك.

ـ كثيراً.

ـ وهذا يعني، أنه يجب أن يكون هناك شخص ما، في مكان ما.. شخص تأملين أن يأتي يوماً للبحث عنك.

دهشت لسهولة الحديث معه، ودهشت لرقته. لكن الإحساس لم يكن مستساغاً، فالكشف هكذا عن أفكارها أمامه، أشبه بمن يكشف نفسه أمام خطر لا يعرفه تماماً. فردت متشنجة:

ـ ربما.. لكن يبدو أنني أخفيت آثاري بحذر حتى أن الشرطة لم تكتشف شيئاً.. وعلى هذا لا بدّ أن عقلي الباطني منشطر إلى اتجاهين بالنسبة لهذا الشخص المفترض وجوده.

فابتسم متحدياً:

ـ كما هو منشطر اتجاهي. أنت لا تثقين بي، مع ذلك تتحدثين معي.. فلماذا؟

ـ ربما لأنك لا تظهر الشفقة عليّ، بل ولا تعاملني وكأنني إنسان

غير سوي. فأنت تحرضني على التفكير، وثمة اهتمام شخصي في اهتمامك بي أيضاً.

أضحكه كلامها. لكنه لم يلبث أن قاد السيارة إلى شجرة سنديان ضخمة وارفة الظلال.. وقبل أن تفكر، كان قد أوقف السيارة وفك حزام الأمان ملتفتاً إليها ليفك حزام مقعدها ويمسك بمعصميها قائلاً بنعومة وهو يشدها بين ذراعيه:

ـ أنت ساذجة جداً يا عزيزتي... أخلتني أحتاج إلى تشجيع؟

وضغط المقود على كتفها فالمها ألماً لم يكن ليقارن بما كانت تحس به في قلبها، تلك الغرائز التي طالما سمعت عنها بدأت تخفق في داخلها لكن تحفظها حثها على ضربه وعلى مقاومته، في حين أن إحساساً أعمق كان يحثها على الجمود بين دائرة ذراعيه.

ستتركها أية حركة منه الآن ضحية، مسلوبة الإرادة، عارية المشاعر أمام ناظريه.

سألته ببطء:

ـ أهذا ما تظن أنني كنت أقوم به؟ إثارتك؟ أنا لا أكاد أعرفك، أو أعجب بك.

ـ اوه.. لكنك تعرفين أن لا علاقة لهذا بالإعجاب.. أو بالحب.. وإذا كنت لا تعرفين لورا، فقد آن لك أن تتعلمي.

كانت أنفاسه حارة على بشرتها وهو يتكلم، حتى استطاعت أن تشم رائحة الرجولة فيه، وأن تحسّ بخشونة بشرته.. في أعماقها، بدأت تستعر نار. لم تكد تميزها إلا عن طريق خدر غريب جعلها دون حراك. تأوهت مبعدة رأسها عنها:

ـ لا أستطيع تحمل هذا.

ـ ستصبح أسهل مع الوقت.

فشهقت ومدت يديها إلى الأعلى وكأنها تتوسل:

ـ سايمون.. أرجوك! (همست).

مدت يدها تدفعه بوهن عنها، وهي تحس بمشاعر حادة تهز كيانها.. فسألها لاهثاً:

ـ أهذا هو رد فعلك العادي على العناق؟

وكأنما رماها بكلامه هذا في ماء بارد:

ـ لا.. ولكن أهكذا تعانق امرأة للمرة الأولى؟

ـ هذا يتوقف على المرأة، يبدو أننا متجانسان.

لكن هذا لم يكن ما تحس به:

ـ يبدو أنني لا أجد كلاماً أرد به عليك.

ـ إذن سأصحبك إلى منزلك.

حين اقتربا من الشقة، تذكرت أنها لم تبلغ كايت وهيلين عن مكان وجودها، شعرت أنها عندما تكون معه تنسحق شخصيتها بحيث لا تستطيع التفكير السوي الذي تظنه جزءاً لا يتجزأ، من شخصيتها.

لم يحاول عند الباب لمسها، فأحست بالرعب لأنها شعرت بخيبة أمل وهو شعور كان أقوى منها، وهذا ما أجبرها على العودة إلى الصلابة التي طالما تبنتها.

سمعته يقول بصوت ساخر:

ـ الوقت متأخر، وبرد الليل قد يجمّدني.. وأنا أعرف الكثير عنك الآن.

ـ إذن تفضل وادخل، إذا كنت تحس بالبرد.

فهمس:

ـ لا.. ولن أعانقك ثانية، فقد اكتفيت لليلة واحدة.. تصبحين على خير لورا.

ردت عليه بما هو مناسب، فضحك، ودفعها لتدخل باب الشقة

المفتوح. تلك الليلة نامت ما إن وضعت رأسها على وسادتها، وهذا ما أدهشها. كان نوماً عميقاً دفع هيلين في الصباح إلى أن تهزها أكثر من مرة حتى تستيقظ.

دفعت هيلين الستائر تفتحها:

ـ هيا انهضي.. فاليوم جميل، مرت عشر دقائق على موعد استيقاظك.

تأوهت لورا وجلست:

ـ اوه.. يا إلهي! كم الساعة الآن؟

ـ السابعة وعشر دقائق. القهوة جاهزة والحمام غير مشغول.. أين كنت ليلة الأمس؟

لملمت بجهد ابتسامة. ثم أدارت ظهرها متظاهرة بارتداء الروب وهي تخبرها بما جرى، فظهر الذهول على هيلين:

ـ حقاً؟ قلت لك إنه مهتم بك، هيا اسرعي لتخبرينا أثناء تناول الفطور.

وهذا ما فعلته، ولم تذكر لهما تلك اللحظات بين ذراعيه، لكن وجهها تضرّج حين مرت الذكرى في رأسها.

وعلقت كايت:

ـ لقد رأيته يوم أمس.

فسألتها لورا:

ـ أين؟

ـ في المستشفى.. كان يخرج من الجناح الرابع.

أحست لورا بفراغ في معدتها:

ـ إنه جناح فيليستي مارلو.. أتساءل ما إذا كان يحاول استنباط شيء منها.. يا لجرأته!

فقالت كايت:

ـ اوه.. لديه الثقة بالنفس التي في الدنيا كلها.. لكنه لن يستطيع هو أو غيره استنباط شيء من الدكتورة مارلو إذا لم تشأ ذلك. فهي مراوغة كبيرة عند الضرورة.

فصاحت هيلين بلورا:

ـ لا تغضبي كثيراً منه.. أتعلمين، إذا اصطحبك إلى منزل شقيقته فهذا يعني أنه جادّ.

هزت لورا كتفيها:

ـ أمر مستبعد.. فأنا أعرفها من المحل.

فقالت كايت مازحة:

ـ أنت تدورين الآن في دوائر رفيعة المقام. فآل دالتون من القاطنين الأوائل في هذه المنطقة.. وكان دان أكبر مورد للحوم في المنطقة قبل أن يتزوج... ما رأيك بهما؟

ـ هما لطيفان، هو ممن يسهل التعرف إليه، وهي محبوبة ولكنها معتادة على التعامل مع الأنواع المعقدة، فلا أحد قد يقول إن سايمون رجلاً سهلاً.

أمضت لورا ما تبقى من يومها مشغولة جداً في المحل.. حتى كادت لا تفكر في سايمون وقد استمر ذلك إلى أن ظهرت فرانسيس باركر، رائعة في ثوبها الأبيض والأسود، الذي أبرز جمال شعرها الأحمر القاتم وعينيها البنيتين. ابتسمت للورا ابتسامة كادت تخدعها حتى حسبتها قد غيرت رأيها بشأن البائعات في المحلات.

قالت بدلال:

ـ أريد رؤية بعض المجوهرات.. خاصة الأقراط الزمردية تلك.

بدت الأقراط مذهلة على بشرتها الرائعة البيضاء.

ـ أليست جميلة؟ عيد ميلادي الحادي والعشرين وشيك. أعلم أن هذا غير مهم هذه الأيام، لكن والديّ يودان الاحتفال،

وسيقيمان لي حفلة كبيرة.. سأحاول بطريقة لبقة ذكر هذا القرط أمامهما.

لا بد أن آل باركر شديدي الثراء ليتحملوا ثمن قرط كهذا إضافة إلى حفلة كبيرة.

ابتسمت فرانسيس ثانية:

ـ قال سايمون إنه اصطحبك ليلة أمس إلى العشاء عند آل دالتون، وقد سرّني ذهابك لأنني أحسست بالذنب عندما رفضت دعوته في اللحظة الأخيرة.. لكن أمي كانت مريضة حقاً، ولم أستطع الذهاب معه.

ـ اسفة لسماع خبر مرضها.. هل تحسنت؟

يبدو أن فرانسيس كانت تتوقع رداً حاداً، فامتعضت من هذا الرد وبدا التكدر واضحاً في صوتها:

ـ اوه.. أجل... إنه بسبب تغيير الطقس والموسم، هل تمتعت بسهرتك؟.

الفضول الواضح في عينيها أسقم لورا..

ـ تمتعت جداً.. شكراً لك.

ـ أليس آل دالتون رائعين؟ روزماري حبيبة. ودان.. ما زال يجعلني أسيرة حين يبتسم لي.

صمتت تتوقع رداً لكن لورا لم ترد، فتابعت هذرها:

ـ أمازح روزماري أحياناً بالقول إن أخاها وزوجها هما أكثر الرجال إثارة في هامبشاير كلها.. أعتقد أن سمعة دان مع النساء كانت رهيبة، وليس سايمون أفضل منه. وطبعاً الأمر مختلف بين الأصدقاء... أعني.. ثمة نوع محدد من الفتيات اللواتي يقبلن.. تعرفين ما أعني.

لورا تعرف تماماً ما تعني، وتعرف بالضبط ما تلمح إليه،

وقررت لو سمعت فرانسيس تقول «تعرفين ما أعني» مرة أخرى فستركلها حتى تخرج من المحل.

فاجأها جورج مالڤن بخروجه من غرفة المخزن الخلفية ليسألها بعد خروج فرانسيس:

ـ مشاكل؟

فابتسمت:

ـ لا.. إنها سخافة عقول بعض الفتيات اللاتي لا يفكرن.

فضحك:

ـ وهل وجدت صعوبة في التعامل معها؟

ـ لا.. لكنني تمنيت لو أنها ليست زبونة.

قال لها بجدية:

ـ حسناً، لا تجعلي مثل هذا يؤثر على نفسك الطيبة... وإذا تحول سخف الفتيات إلى تهجم، نادني على الفور. فلست مضطرة لتحمل هذا.

ـ أعرف.. ولكنني أشك بمقدرة فرانسيس على فعل أو قول شيء لا يمكنني معالجته.

لكن، إذا كان هذا صحيحاً... فلماذا تشعر بهذا الغضب لما كشفته الفتاة الأخرى؟

* * *

٣ ـ امرأة خُلِقت له

عندما خرجت من المحل بعد ظهر ذلك اليوم، توقعت أن ترى سيارته منتظرة وقد وجدت صعوبة في منع نفسها من الالتفات يمنة ويسرى في الشارع.. ولأنها كانت تعرف أنه إن شاهدها سيلحق بها، فقد نظرت أمامها وتابعت المسير.

جعلها الإحساس المؤلم بخيبة الأمل تحس بالإذلال، فهذا يعني أن جاذبيته التي أوصلتها إلى حافة الجنون كانت أقوى مما تصورت. هو يعلم يقيناً أنها حاضرة لعلاقة مدمرة، ولا يلزمها إلا القليل من الاقتراب حتى تقع في الهاوية.

حين وصلت إلى المنزل، كان رأسها يضج بالألم، فاضطرت لتناول دواء ضد الألم، قبل أن تندس في الفراش.

عند استيقاظها، كان الظلام دامساً في الخارج، والريح تعصف، باعثة إلى النفوس الاكتئاب. وقد تناهى إلى مسمعها في الوقت نفسه أصوات الموسيقى، وصوتي هيلين وكايت. اكتشفت لورا أنها جائعة، فلفت مبذلاً قطنياً فوق غلالة نومها، وخرجت إلى غرفة الجلوس حافية القدمين، لكنها توقفت عند الباب مصعوقة حين رأت سايمون، وكاد يغمى عليها.

نظرت هيلين إليها بمرح وقالت وهي تطفىء الراديو:

ـ آه.. لقد استيقظت إذن.. أتودين تناول الطعام الآن؟

أحست لورا بالذعر من نظرة عينيه السوداوين الساخرتين.

قالت ببرود:

ـ لا.. سأذهب لأرتدي ثيابي.

فرد ببرود مضاعف:

ـ لا ترتديها من أجلي.. فأنت تبدين هكذا كطفلة ساحرة.

فابتسمت هيلين:

ـ لورا خجولة محتشمة، ونحن نعتقد أنه لم يكن لديها إخوة أو أخوات.

لكن لورا سارعت إلى غرفة النوم ثانية فارتدت سروالاً وقميصاً بغير عناية، وسرها أن يكون أول قميص تناولته من الخزانة أسود اللون، فهذا اللون يتعارض تماماً مع شعرها الفضي وبشرتها البيضاء ويزيدهما جمالاً.

حين عادت، كان يتحدث إلى هيلين التي بدت منبهرة به. فأدركت أن القليلات يستطعن مقاومة جاذبيته متى اختار أن يستخدمها.

قالت لها هيلين:

ـ يجب أن تأكلي شيئاً لورا.. سأخفق لك بيضتين وأقليهما. ما رأيك؟

ابتسمت لورا، فشغفها بهذا الطبق أصبح نكتة:

ـ سأفعل هذا بنفسي.

ـ لا.. اجلسي مع ضيفنا لتسليه. دوري هذا الأسبوع في الطبخ... سايمون، أتود بعض القهوة؟

ـ عظيم.

وأمسك بيد لورا وهي تمر أمامه يجذبها إلى جانبه على الأريكة.

ـ كنت أعرف شخصاً يحب البيض المخفوق.

ردت لورا مقطوعة النفس من لمسته:

ـ الكثيرون يحبونه مخفوقاً.

ـ صحيح... هل أثير فيك القلق؟

نظرت إليه بدهشة، ثم أشاحت بوجهها عنه، وقالت بوقاحة:

ـ أجل، فمجيئك جريء.. وأنا لا أحب هذا.

ـ لكنك تمتعت بصحبتي ليلة أمس.

ـ لأنني كنت مجنونة.. دع يدي!

تحدتها عيناه الخضراوان مبتسماً:

ـ حين أريد وأكون مستعداً. فقولي أرجوك.

ـ سايمون...

ـ قولي أرجوك.

حل مكان الغضب خوف سلب منها إرادتها، فصمتت فترة وعيناها تتوسلان إليه أن يتركها، لكنها لم تجد تجاوباً، وكانت تعلم أن وراء هذا القناع القاسي، فكراً يحللها. وعلمت كذلك، وكأنه يصيح بأعلى صوته، بأنه يتمتع بإحساسها بقوته، وربما هذا ما جذب مثيلات فرانسيس إليه.

تمكنت، بطريقة ما من أن تتخلص من قبضته بحدة، وقفزت واقفة، وابتعدت عنه بقدر ما أوتيت من قوة. وحين عادت هيلين تحمل صينية الطعام، وضعتها على الطاولة وقالت آمرة:

ـ كليها... أنت تبدين ضعيفة.

فابتسمت لورا وقالت مازحة:

ـ أنت أم مثالية.

ـ أنا بشوق عارم إلى ذلك اليوم.

فسألها سايمون متعجباً:

ـ ألست امرأة عاملة؟

ـ بلى، وأحب مهنة التمريض، لكنني سأتمتع أكثر بحياتي وأنا زوجة وأم. . . وبما أن خطيبي طبيب فلن تكون حياتي سهلة.

ـ لكن ما فيها من مكافآت تجعلها ذات قيمة!

ـ طبعاً، ما كنت لأتزوجه لولا حبي له.

ـ وماذا عنك لورا؟ هل ستربطين حياتك بحياة شخص آخر؟

أنهت ابتلاع ما في فمها وردت ببرود:

ـ كل ما أريده أن أكون نفسي.

بعد قليل قال بنعومة:

ـ أمر طبيعي. . لا ماضٍ لك يعذبك، ولا ذكريات تبقيك صاحية الليل كله. . أعرف أشخاصاً يتخلون عن ثرواتهم من أجل أن يذكروا لحظة واحدة من ذكرياتهم التي أفقدتهم إياها الذاكرة. أما أنت فلا يبدو أنك حزينة أو آسفة على شيء.

ـ لا أريد إلا أن تدعوني وشأني!

ـ كي تتابعي الغوص في الإشفاق على نفسك!

نظرت إليه منتفضة، ثم ابتسمت بقلق:

ـ أنت. . أنت قاسي القلب ومتعجرف.

فضحك لكنه لم يترك الموضوع.

ـ ترى لماذا تعتبر المرأة ذكر الحقيقة، إهانة لها. اعترفي لورا، أنت تتمتعين بأن تكوني من غير ماضٍ. . فهذا يضفي عليك جواً من الغموض الآسر.

تصلبت هيلين بشكل ظاهر، حتى كادت تحملق فيه غاضبة:

ـ لماذا تقول لها هذا بحق الله؟ الشرطة فشلت، فما الذي يجعلك تظن أن لورا أفضل منها؟

رفع حاجبيه بريبة:

ـ أشك في أن تكون الشرطة قد قامت بجهد. . ولماذا يفعلون؟

حالما تأكدوا من براءتها من أي جرم عالمي حتى أقفلوا الملف ونسوا الأمر، معتقدين أنها ستستعيد ذاكرتها قريباً.

فقالت لورا غاضبة:

ـ لا تتكلم عني وكأنني غير موجودة. . . اسمع سايمون باركلي. . لم أعتد الإشفاق على النفس. كنت سعيدة تماماً بحياتي حتى ظهرت أنت وبدأت تعكر صفوها.

ـ إن رفضك كشف ماضيك يثبت وجهة نظري.

فصاحت به ساخرة:

ـ ألن تكره تطفلي على مشاعرك الداخلية؟ لا تقل لي إن حياتك كتاب مفتوح!

فابتسم ساخراً:

ـ هذا صحيح. . لكنني على الأقل أذكر الماضي.

قفزت واقفة بغضب شرس:

ـ اوه! الويل لك! لا أريد رؤيتك ثانية.

واتجهت نحو الباب، لكنه سبقها إليه وأمسك بيديها يمنعها من الخروج. . ما إن لمسها حتى تحرك في أعماقها شيء ما، فوقفت مطأطئة الرأس تتنفس بصعوبة، وأصابعه تشد عليها بقسوة. ثم رفعت رأسها، فرأته يحدق إلى هيلين، وقد بدت تعبيرات وجهه مهددة، لذا لم تدهش لورا حين قالت الفتاة بكراهية واضحة للموقف:

ـ سأترككما. . نادني إذا احتجت إليَّ لورا!

لم يتحرك أحد منهما حتى تركت هيلين الغرفة ثم قال لها:

ـ ما الذي حدث لأخلاقك الطيبة؟ أنت أعقل من أن تجعلي من نفسك فرجة؟.

ـ أعرف هيلين أكثر مما أعرفك.

ـ لا... لكنني مصمم على أن أعرف ماذا وراء هذا الوجه الجميل، حتى وإن اضطررت إلى أن أؤلمك.

ـ وأتصور أنك ستتمتع بهذا.

المرارة في صوتها دفعته إلى رفع حاجبيه دهشة، لكن رده كان بارداً:

ـ ليس بالضرورة، فستمتعني مغازلتك أكثر مما سيمتعني إيلامك. لكن إذا كان الألم ضرورياً، فليكن إذن.

ـ لماذا؟

ـ لأنني فضولي.

ـ أتشبع فضولك، تريد العبث بدماغي؟

ـ ما من أحد قد يعبث بأي جزء من حياتك إذا لم تسمحي له بذلك. كل ما أستطيع القيام به هو حثك على الخروج من هذه القوقعة الآمنة التي تختبئين خلفها.. ومن يعلم، قد يعجبك ما ستجدينه في العالم الجديد الحقيقي.

ارتعشت لورا، فرفع رأسها إليه.. حدقا لحظات طويلة إلى بعضهما بعضاً، ثم ابتسم وأدنى وجهه منها حتى أحست بأنفاسه، فاشتعلت النيران وأدفأت بشرتها وأوهنت عزيمتها ومقاومتها. فهمست مرتجفة:

ـ أنت تخيفني. كأنك تكرهني.

ـ أكرهك! أنا لا أكرهك! ألا تعرفين الفرق بين الكراهية والرغبة؟

ـ كلاهما يخيفني!

ـ لماذا يا ترى؟

كانت وكأنها أرنب نوّمت تحت أنظار ابن آوى.. وباتت عاجزة، يدفعها سحر هذا الرجل إلى ظلمة أكثر رعباً من ظلمة

الفراغ في دماغها. بذلت جهداً وإرادة قوية ثم راحت تهز رأسها، قائلة:

ـ ربما.. لأنني تعرضت... للاغتصاب!

فجأة ازداد التوتر، وتوقفت أصابعه عن مداعبة وجهها، وأنزلهما إلى كتفيها ليضمها إليه فأراحت رأسها في الوضع الأزلي للارتياح.

ـ أهذا ما تظنين؟ (قال).

كانت ذراعاه ثابتتين على ظهرها، وجسده صلباً داعماً. لم تستطع مقاومة إغراء الاستناد إليه وتركه يهدهدها ويحضنها كطفل بين ذراعي أمه. قالت:

ـ لا... أعرف أن هذا لم يحدث... حين... حين بدأت أفكر في الماضي، قال الأطباء كل ما عرفوه عني.. وكانوا متأكدين من أمر واحد ألا وهو أنني.. كنت.. عذراء. لذا فمن المؤكد أنني لم أتعرض للاغتصاب.

ـ وبعد ذلك؟

تضرّجت بشرتها خجلاً:

ـ لا! أنا لست.. أنا ما زلت...

ضحك سايمون:

ـ الكلبتان الحارستان، تحرسانك جيداً؟

تصلبت محاولة دفعه عنها، ترفع رأسها بغضب:

ـ لا تهنهما! كيف تجرؤ! هيلين وكايت حبيبتان لي.

ـ إنهما حبيبتان حاميتان لك. وإذا لم يكن نفوذهما هو ما أبقاك طاهرة حتى الآن، فلا بد أن يكون خوفك من الجنس الآخر... أو قناعتك بأن هذا أمر معيب... فدعينا نكتشف السبب.. أيمكننا هذا؟

لو فهمت ما ينوي، لصرخت تستدعي هيلين، أو لخدشت

وجهه.. أو لفعلت شيئاً لتهرب منه. لكن يبدو أن له تأثيراً مغناطيسياً عليها، ينتزع منها الثقة، ثقة لم تعطها لأحد سواه من قبل... الهدوء الذي فرضه صوته الدافىء عليها أعلمها أن أي ردة فعل منها ستأتي متأخرة.

أمسك بأطراف شعرها على الجانبين ليمنع حركة وجهها:

ـ ابقي هادئة ولن أؤذيك... أنت جميلة، وكأنك إلهة جمال اسكندناقية، حورية ثلج، حورية الخلود.

ـ وكلهن أناث شرسات من وحي القصص الخرافية.

ـ اوه.. لكن الحب روضهن!

وابتسم، ثم حملها بين ذراعيه إلى الأريكة وجلس حتى تبقى هي في حضنه.

ـ أما زلت خائفة مني؟

الصدق أجبرها على إحناء رأسها:

ـ أنت تعرف الكثير.

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ لست أدري!

كانت ردة فعلها حادة على سؤاله الفظ، فحاولت دفع ذراعيه عنها. كانت قسمات وجهه جلية أمامها. وقد راحت عيناه تبحثان في عمق عينيها، وكأنهما تنتهكان حرمة أسرارها.

ثم استرخت أصابعه، وتابع مداعبته الناعمة قائلاً:

ـ أنت تتفوهين بالألغاز أحياناً.. لكنني سأستمر في منحك الثقة، لذلك دعك من التظاهر بأنني أوشك أن أخنقك. فحين أقرر قتلك لورا، سأتأكد من ألا يتشوه وجهك الجميل أو جسدك الشهي.

ـ أنت تحب إلقاء الرعب في نفسي.

فتمتم:

ـ أنت تتجاوبين بشكل مرضي.. وكأنك خُلقت لي فقط.

ـ أيها المتعصب!

لكن لهجتها كانت واهنة ليس فيها حيوية.

سألها حين عبست:

ـ ما بك؟

ـ لا شيء.

ـ لكن شيئاً ما أزعجك. فما هو؟

ـ التكرار.. أشعر وكأنك قلت لي هذه الكلمات من قبل، وكأنني رددت عليك الكلمات نفسها.

فقال بصوت رقيق:

ـ إنها كلمات عادية، ربما ليس لديك الخبرة لكن الكلمات والأفعال هذه عادية جداً، وهي تدعى عادة الغزل. إن أي رجل يرى أن فتاته لينة وناعمة معه هكذا يعتقد أنها خلقت له فقط. والعديد من الشابات، يرمين كلمة «متعصب» في أحاديثهن.

فجأة جذبت نفسها من مداعباته، وراحت ترتب قميصها وسروالها، ولم يمنعها، لكنه ابتسم بسخرية قائلاً:

ـ أوافقك الرأي لا شك في أن صديقتك تتجسس علينا.. كما أن الحارسة الأخرى على وشك الوصول.. أليس كذلك؟

ـ أجل.. لكنني لا أسمح لك إطلاق تسمية «الحارستان» عليهما.

مد يده ليجذبها من جديد، لكن في هذه المرة إلى جواره على الأريكة..

أردفت متوترة عندما لامس جسدها جسده من جديد:

ـ لقد كانتا في غاية اللطف والطيبة معي.

ـ إنها ملاحظة يقولها طفل، على كل هما يعاملانك كطفلة لهما. أليس كذلك؟

فردت بغضب عاصف:

ـ على الأقل يهتمان بي من صميم قلبيهما.

ـ وأنا لا أهتم بك؟

أحنت رأسها حائرة، فضحك بكسل، ومرح:

ـ فهمت... لكن يجب عليك أن تنضجي لتفهمي الحياة عاجلاً أم آجلاً لورا... فلماذا لا يكون هذا عاجلاً؟

ـ تقصد أنك تريدني أن أنضج حتى أسمح لك بإغوائي؟

تمتم بصوت متساهل بعث الألم فيها:

ـ لورا.. لو أردت إغواءك لما اخترت مكاناً عاماً.. كنت فقط أقوم بتجربة.

ـ تجـ.. تجربة؟

ـ بالضبط عزيزتي. وسأخبرك النتيجة. ربما لم تكوني على علاقة حميمة مع رجل، لكنك تفهمين تماماً ماهية هذه العلاقة. فتحت هذا القناع الجاف، سيدة حساسة عاطفية، صدقي قولي هذا قبل أن تجدي نفسك يوماً في موقف لن تستطيعي السيطرة عليه، وأنا أكيد من أنني لست مضطراً لأقول لك ما قد يلي هذا!

أبقاها الذل، صامتة لحظات. ركزت عيناها على يديها المتشابكتين في حضنها، ثم راحت تسترخي ببطء وترخي معها قبضتيها، مصغية إلى عويل الريح في الخارج وكأنه عويل روح مهجورة، أما السماء فتلبدت فيها عاصفة ربيعية آتية من الشمال، تعطي عادة أمطاراً تروي التربة المشبعة بمياه المطر المحلي الحامل قليلاً من ملوحة البحر.

قالت له بصوت أجش قاس:

ـ وكيف تعرف أنني لا أتجاوب إلا معك فقط.. بهذه الطريقة؟

ـ وهل غضبت؟

ـ لا.. لكنني لا أرى أنك قادر على معرفة هذا، قال لي الأطباء إن الرجل لا يعرف أبداً ما إذا كان للفتاة تجربة أم لا، فكيف لك أن تعرف؟

ـ هذا حديث محرض ومثير، أواثقة بأنك تودين متابعته؟

ـ أنت من بدأته.. ولا أصدق أنك تعرف.. أعتقد أن الوهم وحده يجعلك تدّعي المعرفة.

أرادت أن تسخر منه، لجرح كبريائه، لذلك أحست بالإحباط حين ضحك وقال مؤكداً:

ـ لماذا لا تجربين مخالبك على شخص آخر لورا، فرأيك بي لا يقلقني. أترغبين في تجربة الطيران معي في نهاية الأسبوع؟

أربكها تغيير الموضوع، فأدارت وجهها تحدق فيه:

ـ أنا.. طيران؟

ـ أجل طيران.. فوق المنطقة.. لن يتمكن دان أو روزماري من مرافقتي، وأريد معي شخصاً يدلني على أبرز معالم المنطقة.

ـ وماذا عن فرانسيس باركر؟

ـ ماذا عنها؟

ـ تعرف المنطقة خيراً مني.. أم لعلها لن تتمكن من مرافقتك مرة أخرى كما حدث عندما لم تستطع الذهاب برفقتك إلى منزل شقيقتك؟.

فابتسم ساخراً:

ـ أهذا ما قالته لك؟

ـ أجل...

ـ حسناً... ما ردك الآن؟

ـ أنا.. أجل سأرافقك.

ـ وهل طرت من قبل؟

ـ أعتقد أني وصلت إلى همبشاير جواً، فأنا لست من هذه المنطقة، لكن لمَ السؤال؟

ـ لأن الأمر مختلف في طائرة صغيرة..

وجدت نفسها غبية لأنها قبلت العرض إلا أنها قالت:

ـ أحب أن أشاهد الجنوب جواً.

فابتسم ووقف ممسكاً بيدها لتقف معه.. ثم تناول سترته عن كرسي وارتداها.

ـ تصبحين على خير لورا.

ـ تصبح على خير سايمون. قُد سيارتك بحذر.. ستمطر السماء في أية لحظة.

هز رأسه، ثم استدار مبتعداً. حين وصلت كايت فيما بعد، كانت لورا محتبية على المقعد تصغي إلى الموسيقى، فسألتها دون أن تتغير تقاسيم وجهها:

ـ هل أمطرت السماء؟

ـ قد تمطر في أية لحظة. هل أنت بخير؟ تبدين متعبة.

ـ إنه صداع، سببه صحبة سايمون باركلي القابضة للنفس. فلسبب ما يظن أن من واجبه تشجيعي على استعادة ذاكرتي. وان أفضل طريقة لهذا هو دفعي للغضب.

قطبت كايت وهي تنظر إليها بقلق:

ـ لقد فشل كل ما فعلناه.. ربما يكون على حق.. وما هو تأثيره عليك لورا؟ وكأنه لا يعجبك، لكن لا يمكن إلا أن تشجعيه.

ـ أتظنين حقاً أنني قادرة على التأثير فيه؟

ـ بطريقة ما.. أجل.. أنت فتاة جميلة، وهو بكل تأكيد يعي هذا، مع أنني لا أنكر أنه يصعب التأثير في رجل كهذا.. ألديك فكرة عن سبب اهتمامه؟.

ـ لا أظنه مهتماً. بل يتملكه الفضول. ربما يعجبه لعب دور المنقذ.

ـ وربما يجد صعوبة في رفض أي تحدي.

ـ وهل أشكل أنا ذلك التحدي؟

ـ اوه.. بالطبع. فأنت باردة، مكتفية بنفسك.. يجد بعض الرجال هذا تحدياً.

اجتاحت رجفة أوصال لورا:

ـ يريدني أن أقوم معه برحلة جوية فوق الميناء والخليج.

ـ وهل ستذهبين؟

فتنهدت:

ـ أجل.

ـ هل أنت واثقة بأنك تعرفين ما أنت مقدمة عليه؟

ـ لا.. بل أنا في الواقع لست معجبة به.

ـ ستؤلمين نفسك! وماذا عن فرانسيس؟

ـ ماذا عنها؟

ـ حسناً.. يبدو أنها تطالب بحقها فيه.

فضحكت لورا:

ـ ما من أحد يستطيع المطالبة بأي حق فيه، وهو لا يطيق أي مطالبة... إنه واثق من نفسه، وقد تكون فرانسيس عشيقته، لكن إذا حاولت إبراز غيرتها عليه، فسيدير لها ظهره وعلى وجهه ابتسامة.

ارتجفت لورا واشتبكت يداها معاً بقوة.. فسألتها كايت بحدة:

ـ وكيف تعرفين هذا كله عنه؟ لورا.. كيف تعرفين؟ هل قابلته من قبل... أتعرفينه؟ لورا.. هل تذكرت شيئاً؟

جعلها ضغط رهيب عند مؤخرة عينيها تتألم. توقعت هطول دموعها إلا أنها لم تهطل وردت بخشونة:

ـ لا.. أنا لم أشاهده من قبل.. قال إنني لا أعرفه.

ـ إذن لماذا القلق؟

ـ لست قلقة... لا بد أنني كنت أعرف شخصاً مثله.. لا أعتقده يكذب إذ ليس لديه ما يدفعه إلى الكذب.

ـ لا.. بل قد يكذب إن وجد الكذب ضرورياً.

اندفعت لورا دون سبب للدفاع:

ـ وكيف تتأكدين من أنه قد يكذب؟

ـ يا عزيزتي، قليلة هي الأشياء التي لا يمكنه فعلها، وهذا يشمل الجريمة كذلك. هو يسيطر على عنفه وقساوته بقوة، لكنهما موجودان. وهذا جزء من سر جاذبيته التي شدّت فرانسيس إليه، ولهذا أظن أن من الأجدى لك البقاء بعيدة عنه.

ـ حسناً.. سأقوم بهذه الرحلة، ثم أوضح له أنني لا أود رؤيته ثانية.

ـ قومي بها يا لورا. وإن كان من النوع الذي تعتقدينه، فسيدير لك ظهره وعلى وجهه ابتسامة.

* * *

٤ ـ حورية الثلج

كان يوم السبت يوماً رائعاً للنزهات، فيه الهواء عليل وفيه السماء صافية مشمسة لا يشوبها إلا غيمة وحيدة عالية فوق الجبل البعيد. تناولت لورا طعام الفطور متسائلة عن سبب إحساسها بهذا الفراغ البارد في نفسها.

وصل سايمون حتى قبل أن تنهي النسوة الثلاث فطورهن. كان يبدو فاتناً جذاباً، وهو مرتدٍ قميص مرتفع الياقة، يلتصق بعضلات كتفيه وصدره.

ـ جاهزة لورا؟

حاولت إظهار استقلاليتها:

ـ سأنهي قهوتي، أتود شيئاً منها؟

ـ لا..

فوضعت فنجانها من يدها، واستدارت لتتناول سترتها الصوفية. وعندما أصبحا في السيارة، نظر إليها بطرف عينه:

ـ تبدين ساحرة، أعتقد أن صديقتيك لم توافقا على هذه المغامرة.

ـ أنت ذكي، لقد أدركت نصف الحقيقة، فماذا تتوقع أيضاً؟

فضحك.

ـ وهل يعتقدان أن لي مأرباً؟

ـ وهل لديك مأرب؟

ـ تقريباً.. لكنني أعتقدني قادراً على السيطرة على نفسي، خاصة في الطائرة.

ضحك على قوله هذا، وقد جعلها أثناء المسير إلى المطار تضحك أيضاً.

بدا أن الهواء قد غدا نقياً عندما اقتربا من الطائرة الصغيرة. ولم تدهش البتة حين علمت أنه منْ سيتولى قيادتها، فهو يبدو كأنه إنسان قادر على فعل أي شيء.

قال لها بصوت منخفض:

ـ أنا مؤهل، ولدي رخصة!

ـ أصدقك..

حاولت عامدة فرض الاسترخاء على أعصابها وهذا ما جعل توترها يخف قليلاً.

حين أقلعت الطائرة، وضعت نظارة شمسية على عينيها ونظرت إلى الخارج، تتمتع بالمناظر تحتهما. كانت ساوثمبتون تمتد من رأس شبه الجزيرة إلى طرف الخليج البحري الذي يجعل منها أهم ميناء على القناة الإنكليزية وأهم ملتقى الخطوط البحرية القادمة من الأطلسي....

انتشرت المنازل الريفية في ضواحيها تزينها سقوف حمراء قرميدية تبدو أجمل في محيطها الأخضر الذي يشبه اخضرار المتوسط. أما المدينة فامتدت ما بين نهري «تاست» و «أتشن» وأطلت عليها الجبال... من بعيد كانت تشتعل مدخنة طويلة تقع قرب مصفاة النفط عند طرف الخليج. وكان إلى جانب المجمع النفطي محطة توليد الطاقة، وإلى جانب المرفأ الآخر، حوض الملك جورج.

قالت لورا معلقة:

ـ إن هذا لعمل جبار.

ـ كان الرجال قساة في ذلك الزمان.

أشارت إلى الأماكن الرئيسية على الأرض لكنها في بعض الأحيان وجدت صعوبة في تحديد مكانها من هذا الارتفاع إذ كانت تبدو لها من الجو غريبة أما أمواج القناة فتلاطمت مندفعة رأساً من الأطلسي مصطدمة بالخط الساحلي.. كانت ألوان البحر تتدرج من الأزرق القاتم إلى الفاتح إلى الأبيض حيث الموانىء والشطآن، ومصب النهرين. قالت:

ـ في الصيف تجد الناس في المنتجعات التي يقصدونها للسباحة والزلج وصيد السمك. وبعض الناس يذهب إلى جزيرة وايت وما يحيط بها من جزر صغيرة. هناك إلى يسارنا، يغطسون تحت الماء لاصطياد أنواع من السمك تنجرف هرباً من برودة الأطلسي إلى مياه القنال الدافئة.

فسألها:

ـ هل تمارسين الغطس؟

ـ لا.. فهذه الهواية تكلف المرء كثيراً، وأنت؟

ـ أجل.. سأصحبك يوماً للغطس.

فضحكت:

ـ وكم تنوي المكوث في همبشاير؟

ـ سأبقى ما يحلو لي ذلك. إن المرء يتعلم محبة هذه المنطقة الدافئة.

ـ إنها المنطقة الوحيدة التي أعرفها، وهي جميلة، فيها الحرية والبراري والرومانسية، والمناظر الطبيعية المختلفة. إنك فيها لن تمل السفر أبداً، إذ لن تعرف ماذا سيطالعك في المنعطف القادم.

فابتسم:
ـ أرى هذا بنفسي.. سأذهب إلى الخليج غداً.. أترافقينني؟
أزف الوقت حتى تقول له إنها لا تريد رؤيته بعد. فقالت:
ـ سأكون مشغولة غداً.
ـ حقاً؟ ربما في وقت آخر.
أرأيت لورا.. الأمر سهل.. بضعة حدود كهذه ولن يقترب منك بعدها ثانية... بقيت صامتة حتى حان أوان الهبوط، عندما حطت الطائرة الصغيرة فوق المدرج الصغير، تنهدت تنهيدة غريبة، ثم أغمي عليها.

كان صوت سايمون هو أول ما سمعته حين استعادت وعيها، رأته يلعن ويشد حزام الأمان ليسحبه عن مقعدها. لقد أحست بالدوران فجأة وكادت تتقيأ، لكن بعد أن ابتلعت لعابها مرات عديدة استقر الدوران وفتحت عينيها، وتمتمت مضرَّجة الوجه:
ـ لا بأس.. أنا آسفة.
ـ ما الذي حدث لك؟
ـ لست أدري. أغمي علي دون أن أعرف السبب.
ـ وهل أنت بخير الآن؟
ـ أجل.. أحس بأنني بخير.
ـ تريثي.. سأساعدك على الترجل.
أنزلها سايمون وضمها إليه، حتى تنهدت، وابتعدت عنه، فقال:
ـ أيمكنك الوصول إلى السيارة؟
ـ أجل.. أظن هذا.
ـ خذي المفاتيح إذن، وابقي في داخلها حتى أصل.
التقطت المفاتيح التي رماها ثم سارت إلى موقف السيارات. كان الهواء بارداً، لكن ليست فيه حدة الشتاء.. امتدت شمالاً

وغرباً أراض زراعية تسقيها الأنهر حتى كرونويل وامتدت شمالاً وشرقاً أراضي «الوايلد» الخصبة وصولاً إلى أراضي «الدونز» الجنوبية الساحلية. وراحت أشباح غيوم قرمزية تلاحق بعضها بعضاً عبر البراري، فتبعتها عينا لورا من خلف الجبال حتى الخط الساحلي.

في مكان ما هناك، على شواطىء جزيرة وايت، التقت سايمون.. منذ اللحظة الأولى علمت أنه سيكون مميزاً في حياتها، بينما كانت تنقل طرفها مع الغيوم المتسابقة من الساحل حتى الجبل البعيد راحت تتساءل كم سيكون مميزاً.

حين انطلقا بالسيارة عائدين، أمعن فيها النظر ثم سألها فجأة:
ـ أخبريني بالأمر..
ـ أي أمر؟
ـ أين كنت حين استيقظت وبم أحسست؟ كنت هنا قبل الحادثة دون شك.
ـ أجل.. قبل بضعة أسابيع.. كنت خلالها قد وجدت وظيفة في المحل حيث أعمل الآن، لكنني في تلك الأثناء لم أكن أسكن في شقة بل في فندق.
ـ أخبريني بالضبط ما حدث.
تنهدت لورا، لو أن إعادة تذكر ما سبق الحادثة يفيد في استرداد ذاكرتها لاستردتها منذ زمن بعيد:
ـ كما يظهر، كنت عائدة من عملي وأنا أقرأ مجلة ويبدو أنني وبينما كنت أرتقي الدرج انزلقت قدمي فوقعت، ثم أغمي علي. لم أسترد وعيي فوراً، فحملوني إلى المستشفى، وحين استيقظت هناك لم أذكر من أنا. وهكذا حصل ما حصل.
ـ هل قرأ أحد المجلة لمعرفة ما إذا كان فيها ما له علاقة

بالقضية؟

ـ أجل.. أظنها ما زالت لدي في مكان ما. إنها مجلة عادية: مجلة فيها مواضيع عن الأزياء، ومقالات عن الأتيكات، وعن أشخاص مهمين. لم أجد فيها ما له علاقة بماضيي. وحتى أكون صادقة معك أقول لقد سئمت المسألة برمتها، وأريد أن أترك وشأني حتى أعيش حياتي هذه بعيداً عن تطفل الناس الذين يظنون أن فاقد الذاكرة مجنون، أو نصف مجنون. أو مزيج من الاثنين.

رد عليها بهدوء:

ـ أنا لن أفكر هكذا أبداً، وهل يهمك رأي الناس؟

ـ يهمني حين يترجمون أفكارهم بأفعال.

وانفجرت ضاحكة ثم أردفت:

ـ بعد فترة من مغادرتي المستشفى ذهبت إلى حفلة عشاء مع هيلين، فراحت المضيفة تهمس لي أسماء الأطباق ونوع أدوات المائدة التي يجب أن أستخدمها!

فضحك بدوره:

ـ وكيف تصرفت؟

ـ غضبت في البداية. لكن عادت روح المرح وسيطرت عليّ، فاضطررت إلى كبح الضحك الذي تملكني، وحين عدنا إلى البيت كنا على شفير الهستيريا من الضحك. الناس يعتقدون أشياء غريبة، لكن الجميع على العموم كان لطيفاً معي.

ـ أهل الجنوب الإنكليزي كرماء بطبيعتهم، أنا سعيد الحظ لأن روزماري تتلقى الدعوات فهي تعتذر عني دائماً قائلة إنني منشغل بتأليف رواية.

ـ وهل هذا صحيح؟

ـ اوه.. أجل، روزماري لا تكذب.

ـ أتصورك تتقوقع على نفسك أثناء الكتابة.. تعلم ما أعني! العبقري المجنون الذي لا يرغب في أن يزعجه أحد.

ـ وثمة حرس يتسللون على رؤوس أصابعهم عندما أكون نائماً، باذلين جهدهم لئلا أرمي غضبي عليهم؟

ضحكت فغيرت الضحكة القناع المتحفظ عن قسماتها، أحست بالنشاط والحياة، وعلمت أن ما يجذبها إليه ليست الجاذبية فحسب.

ـ أنت جميلة (قال لها).

نظرت إليه بسرعة غير دهشة، فرفع يده ليلمس مكان قلبها الخافق بشدة، ثم قال لها ساخراً يتحداها أن تحتج:

ـ ألن يكون هناك طلب محتشم لرفع يدي؟

ـ سيكون هذا مضيعة للوقت.

ـ إذن، ألن تقاومي، فيما لو قررت عناقك الآن؟

ـ اه. هذا أمر مختلف، وأظن أن غريزة الحفاظ على الذات ستمنعني من أن أكون عابثة.

لمعت عيناه كأنوار السيارة:

ـ لو كنت تملكين فعلاً غريزة الحفاظ على الذات، لتركت هذه المدينة يوم رأيتني.

وتابعا السير بصمت، وحين أصبحا أمام باب الشقة، دعته إلى فنجان قهوة لكنه رفض.. فظهر عليها الارتياح.

قال لها بخشونة:

ـ يجب أن تتعلمي كيف تخفين ارتياحك جيداً، لورا.

أمسك بكتفيها فجأة ثم أدارها وضمها بشدة كادت تزهق أنفاسها، وسرعان ما أحست بالنيران تندلع في أطراف أعصابها وتسري في عروقها حتى أنها أغمضت عينيها لتخفي أي انطباع

فيهما.. وقال لها:

ـ لماذا تقاومين لورا؟ لقد نظرت إلى وكأنك تعتبرين بعدي عنك نعمة.. فلماذا؟

ـ لست أدري.

ـ بل تدرين يا حبيبتي. وحين تعترفين بهذا لنفسك ستكون الحياة أبسط وأسهل بكثير لنا... وداعاً الآن.

شكرته على النزهة، فقابلها بضحكة ساخرة، ثم بقيت عاجزة عن التنفس حتى انطلق مبتعداً.

كانت هيلين مستلقية على منشفة في مرجة المنزل الخلفية، ترتدي «بيكيني» ليس محتشماً أبداً. حين قالت لها لورا هذه صاحت:

ـ كلام هراء.. كما أنه ليس هناك من يراني هنا.. ذهب الجميع إلى الشاطىء.. هل أمضيت وقتاً طيباً؟

ـ أجل.

ـ تبدو عليك البغتة... الرجل لا يعجبك، أليس كذلك؟

ـ اوه.. بل يعجبني.. لكنني لا أثق به.

ـ لكن يا لورا.. حتى أطيب الرجال لا يمكن الوثوق بهم. فكل رجل سيحاول نيل ما يريد منك.. وهذا أمر طبيعي.

ضحكت لورا:

ـ لديك أغرب الملاحظات الساخرة يا ذات العينين البريئتين. هل حاول حبيبك هذا؟

احمرار طفيف أظهر خجل هيلين:

ـ طبعاً! وكما قلت كلهم هكذا. لماذا السؤال؟ هل واجهت صعوبة مع الوسيم المتوحش؟

ـ لا.. ليس بعد. أظنه يحاول أن يفقدني توازني أولاً.

- وهو ينجح، كما يبدو لي.
- أخشى أن هذا صحيح.. إنّه جذاب، لكن ثمة أشياء أخرى.
تنهدت.. فتحركت هيلين بقلق:
- مثل ماذا؟
- لست أدري.. أولاً، لا أظنه معجب بي، كما أنه ليس بالفتى العابث، فكيف يلاحق رجل مثله فتاة لا تعجبه. يقول إنه مهتم بفقداني للذاكرة.. لكن، بإمكانه أن يعرف معلومات دقيقة من كتاب ما أو من طبيب.
- صحيح.. لكن ربما هو مهتم بردة فعلك تجاه الأمر؟
- أعتقد هذا.. لكن ليس لي ردات فعل.. أعني، أنا أتقبل الواقع. وأنا أعيش، أعيش حياة طبيعية، وأتحدى أي إنسان مهما كان موهوباً ولامعاً أن يجد في هذا أي خطأ!
- إذن هو مهتم بك شخصياً. فلنواجه الواقع لورا.. أنت فتاة جذابة جداً.. لاحظت كيف ينظر إليك بإعجاب شديد.. ثم.. تلك الليلة التي طلب مني تركككما وحدكما... هل حدث شيء؟
- أي هل استغلني؟ عانقني، ثم قال إن هذا ليس إلا اختبار تبين له من خلاله أنني أملك خبرة على الأرجح.
- أهذا ما قاله؟ يا للوحش! وهل تمتعت؟
- أعجبني.. ووجدته جذاباً.. لكنني ما زلت لا أثق به.
- وهل تظنين أن لك التأثير ذاته عليه؟
لامس احمرار خفيف وجنتي لورا:
- أوه.. أجل.. أعتقد هذا.
- إذن أنت في ورطة يا فتاة.. فلدي إحساس بأنّ ما يريده هذا الرجل يحصل عليه.
- امل أن يكون قد وضع خطاً أحمر ضد إغواء فاقدات الذاكرة.

وقفت لورا مردفة:

- سأصنع بعض القهوة.

- عظيم.. وصل البريد في غيابك، ولك فيه رسالة، أعتقدها دعوة.

وكانت بالفعل دعوة، قرأتها لورا بدهشة ثم أعطتها لهيلين التي صاحت بعد قراءتها:

- يا إلهي! فرانسيس باركر، من بين كل الناس تدعوك إلى حفلة ميلادها الحادي والعشرين! ولمَ تدعوك؟ إنها لا تعرفك جيداً.

- أعتقد أن لهذا علاقة بسايمون.

- وهل ستذهبين؟

- لا أعتقد، فكما قلت، أكاد لا أعرفها، ولن أسمح لها بتقديم معروف لي.

- صحيح.. أفهم وجهة نظرك... لكن هذا مؤسف. فسترين في الحفلة كيف يعيش نصف المجتمع الآخر. تحاول فرانسيس بناء اسم لها في المجتمع. لكنني لا أفهم سبب دعوتها لك. أيكون سايمون قد طلب منها ذلك؟

- لا أظن.. ليس لديه سبب لهذا، بل لا أعرف إن كان سيذهب.

- أوه.. إنه مجبر.. فآل دالتون وآل باركر ينحدران من الماضي نفسه.. لذلك ستذهب شقيقته.

عادت لورا إلى عملها في الصباح التالي بعد أن اتخذت قراراً نهائياً برفض الدعوة. ما هي إلا دقائق على وصولها حتى دخلت روزماري دالتون المحل، وكأن الأمر مقصود، بدت منزعجة تجر بيدها فتاة صغيرة مشاكسة، تقول لها:

- لا حبيبتي.. لن تذهبي إلى السينما!

لا بد أن هناك شيئاً في لهجتها أبلغ الصغيرة أنها جادة. فتوقفت عن التلاعب.. فسألتها لورا برهبة:

ـ كيف فعلت هذا؟

ابتسمت ابتسامة لعوب بدت أثناءها أصغر سناً.

ـ المقدرة الفطرية، والتهديد بأبيها... لكن مارلين ذات الإرادة الحديدية فتاة عاقلة، إن ولدي ولله الحمد ورثا هذه القدرة عن والدهما.. أما الآن، فجئت أشكرك لأنك اقترحت تلك الهدية الجميلة على سايمون. لقد أحبتها جداً.

ـ أفرحتني.

يستحيل أن يكون المرء متوتر الأعصاب مع امرأة طيبة كروزماري، لذا فهمت لورا جيداً سبب تعلق دان دالتون بها. إنهما فاقتان لحبة واحدة.

قالت باندفاع خال من الحذر لم تعرف سببه:

ـ ثمة أمر غريب. لقد تلقيت دعوة من فرانسيس باركر إلى حفلتها.. ولست أدري لماذا تريد مني الحضور.

بدت الدهشة على المرأة، وقالت تضحك:

ـ حسناً.. صحيح... إنها ليست في العادة متحمسة للمنافسة، مسكينة فرانسيس. وهل ستذهبين؟

ـ لا.. فأنا لا أعرفها ولا أعرف عائلتها. حيّرتني دعوتها. لماذا أرسلتها؟

ـ أوه.. ولماذا لا تذهبين؟ عائلتها طيبة ساحرة، والحفلة ستكون ناجحة. أعرف ماذا نفعل، اقصدينا لنذهب معاً ثم عندما نعود تنامين في منزلنا.

ـ أوه.. لا.. لا. هذا لطف كبير منك، لكنني لن أتطفل.. لقد قررت الرفض.

أسفت روزماري على قرارها إلا أنها لم تجادلها في الموضوع:
ـ أمر مؤسف، إذا غيرت رأيك فأنا على استعداد لاستقبال
ومرافقتك، إذ يرتاح المرء أكثر حين يذهب مع شخص يعرفه، ك
أن دان ستسره صحبة امرأة جميلة.
فاحمر وجه لورا:
ـ امرأة جميلة؟ بل اثنتان، بكل تأكيد.
ـ اوه.. هذا لطف منك عزيزتي، لكن الأفضل أن تقولي إن
جاذبية وسحراً محددين.
ـ لكن زوجك مؤمن بجمالك.
فابتسمت روزماري وأجابت بنعومة:
ـ أجل.. أعرف هذا.
ولأن الدعوة جعلتها منقبضة الصدر، حاولت إشاحتها ع
فكان أن أغرقت نفسها بالعمل وحين ودعت جورج، كانت
قررت نهائياً رفض تلك الدعوة. عندما وصلت إلى الشقة كتب
اعتذاراً وضعته على الطاولة حتى ينقل بالبريد غداً باكراً. حين ر
هيلين قالت:
ـ أظن أن عليك الذهاب.
ـ كان يمكن ذلك، لو أن هناك من يرافقني.
ـ حاولي أن تعرفي ما إذا كان سايمون على استعداد لمرافقتك
ـ لا.. لا أعتقد هذا. ولن أحاول رؤيته مجدداً بعد الآن.
كانت هيلين خارجة من المنزل، فقالت وهي تقفل الباب:
ـ حسناً.. لقد أوقف سيارته لتوه في الخارج، وهذا يعني أ
سترينه الآن، فهل ستكونين على ما يرام؟ أعني.. إنني قد أبقى
رغبت؟
ـ هراء.. اذهبي وتمتعي بعشائك.. فلن يضربني أو يغتصبني

ـ لا أظنك محظوظة إلى هذه الدرجة!

التقى بهيلين عند الباب الخارجي فقد سمعت صوتيهما.. صوته المازح وضحكات هيلين، ثم ساد صمت قصير قطعه دخوله إلى غرفة الجلوس. فقالت له وقلبها يخفق:

ـ مرحباً.

ـ مرحباً.

نظر إليها وهي محتبية على الكرسي، تبدو دلائل سمرة الصيف الأولى على ساقيها تحت سروالها القصير... تقدم ليجلس إلى جانبها:

ـ تبدين فاتنة، هل كنت تعملين في الحديقة؟

ـ كنت أشذب العريشة.

نهضت من مكانها في محاولة للابتعاد عنه.. لكنه مد يده ليمسك يدها، فتوقفت تنظر إلى قمة رأسه السوداء، وإلى عظام أنفه القاسية عندما انحنى ليضع إصبعه على خدش طفيف بسيط على ساقها، كادت تجعلها الأحاسيس التي اشتعلت فيها تصيح. فعضت على شفتها وتسمّرت في مكانها دون حراك، مصعوقة بما أحست به من عمق مشاعر، ثم تركها... فأحست أن لا شيء في حياتها سيعود كما كان مرة أخرى.

قال لها آمراً، وهو يبتسم:

ـ ابتعدي عن الدوالي.. فلا يعجبني أن يعيب ممتلكاتي أو يدمغها أحد سواي.

ـ وهل أنا من ممتلكاتك؟

رد عليها وهو واثق من نفسه، قاس، ساخر، وخبير:

ـ اوه.. أظن هذا.

حين لم ترد عليه، ابتسم ثانية، وجذبها لتجلس على ركبتيه،

وأمسك بها بقوة حتى توقفت عن المقاومة.. وقال لها بهدوء:

ـ ربما لم تصبحي بعد من ممتلكاتي.. لكن، لن يطول الأمر. أنت لست غبية، وتعرفين أنني أريدك.

ـ أليس لرغباتي حساب لديك؟

ـ لم يؤثر فيَّ يوماً الحب الإنكليزي الخاسر. إن كنت لا أضمن كسبي معركة ما، لا أخوضها. ونحن نعرف منذ أن التقت عيوننا، أننا متجهان إلى هذا الانجذاب. خاصة بعد أن رأيت تجاوبك. فأنت تبعثين حية حين ألمسك. فلا تحاولي الكذب علي لورا.

ـ أنت تعرف كل شيء بالطبع، فلديك الخبرة الكافية.

ودفعها غضبها والخوف إلى الوقوف فجأة.. ففاجأه هذا.. ضاقت عيناه وهو يراقب خطواتها تقترب من الشرفة الصغيرة، فقال لها بوقاحة:

ـ ربما ليس لديك خبرة.. لكنك لست ببراءة عذراء... فلماذا الخوف إذن؟

لو قالت له إنه سيدمرها بهذا لضحك. فالتعقل أمر درامي جداً. لكنها تعرف تماماً أنه سيدمرها، أن هناك شيئاً فيه يجعل غرائزها كلها تصيح خائفة... إنه يسعى إلى علاقة عابرة، لكنها ليست كفرانسيس السهلة المنال، وإذا سمحت له بمغازلتها، فستضيع إلى الأبد في الهوة السوداء التي تقف مسلطة كالسيف فوق رأسها.

ـ كم امرأة أحببت من قبل؟

أوجب سؤالها هذا ابتسامة باردة، ورد بخشونة:

ـ لست من هواة هذه اللعبة! إذا كنت تعنين بالحب تلك العلاقة، فليس من عادتي وضع علامات على قوائم السرير. أما إذا كنت تقصدين ذلك الهوى الكبير الذي يضج بذكره الشعراء، فسأقول لك إنني لم أعرفه من قبل. فلقد توقفت عن الحلم به،

منذ عشر سنوات. فنتائج مثل هذا الحب الرومانسي هي المسؤولة عن تعاسة الكثيرات في هذه الأيام. والأهم أنني لن أكون ضحية أبداً على هذا المذبح.

ـ ولماذا لا تكتب رواية عن الموضوع؟.. اوه سايمون.. صدقني حين أقول إنني لا أريد علاقة.. مع أي إنسان.

ـ لماذا؟

لم ترد.. فكرر:

ـ لماذا لورا؟ لماذا أنت خائفة من إقامة علاقة مع شخص ما؟ أخبرتني صديقتاك أنك خرجت مع رجال عدة، وذكرتا لي أنك كنت ترتدّين عندما تلاحظين أن أحدهم جاد في علاقته.. لماذا تبتعدين عن الرجال، لورا؟ أنت لا تخافين من المشاعر، فأنت تحبين هيلين وكايت بقوة.. فلماذا ترفضين أن يقترب منك أي رجل؟

صاحت به غاضبة، وأعرضت عنه لئلا يرى شحوب وجهها:

ـ أعتقد أن كتّاب الروايات يظنون أنفسهم أخصائيين في علم النفس. فلماذا لا تخبرني عما كونت من آراء بشأني.

دنا سايمون منها، وتوقف غير بعيد عنها.

ـ لدي بضعة آراء عنك، لكنني سأحتفظ بها لنفسي في الوقت الحاضر.. هل قبلت دعوة فرانسيس؟

التفتت إليه بحدة وغضب فاصطدمت نظراتها بنظراته الباردة:

ـ هذا ليس من شأنك!

ـ لكنني أعتبره شأني.. وأراهن على أنك كتبت إليها رافضة.

ـ وماذا يعني لك رفضي؟

ـ إنه يعزز قناعتي بأنك جبانة.

ابتسم ببرود وتقدم إلى حيث وضعت الرسائل للبريد.. حين

أدركت أنه سيفتح رسالتها ركضت تنتزعها منه، لكنه مدّ ذراعه، يمنعها.

صاحت بعد أن بلغ غضبها الذروة:

ـ اتركني! لا تتجرأ على فتحها.. اوه!

نظرت إلى عينيه بتحدٍّ وازدراء، محاولة إخفاء واقع أن قلبها يكاد يقفز من بين جنبيها.. فقال ببرود:

ـ لماذا توقفت عن الصراخ والمقاومة؟ بدأت أتمتع لتوي بها.

قالت وهي ترغب في إنشاب أظافرها في وجهه:

ـ أنت أفعى سامة! لماذا تفعل هذا!

حين قرأ رسالة الاعتذار كورها في يده ورماها أرضاً.. لكنها قالت:

ـ سايمون.. لا أريد الذهاب إلى حفلتها! بل أنا لا أفهم سبب دعوتها لي. و..

ـ لقد دعتك، لأنني تركت الجميع يعرف، دون قول أي شيء، أنني لن أذهب إلى هناك إذا لم تكوني أنت في الحفلة. وأنت ستذهبين يا حلوتي، بإرادتك، أو بغير إرادتك، لأنني سأجبرك على مرافقتي.

ـ لا تكن أحمق! لن تستطيع إجباري!

اختفت البسمة عن وجهه. وقال بهدوء:

ـ لن أستطيع؟ أووه.. بل أستطيع.

عقلها قال لها إنه لن يستطيع إجبارها على فعل أي شيء. ومع ذلك ارتجفت من التعبير الذي ظهر على وجهه. حاولت التراجع، لكن ذراعه اشتدت عليها.. كان ما يحيط بهما هادئاً جداً الآن، فزحام السير اختفى، ولم يعد ينبعث من الشارع إلا صوت شخص يصفر لحناً وأم تنادي طفلها من بعيد. وكانت الشمس قد اختفت

وراء التلال إلى الغرب، وبدأ الظلام يسدل ستارته.

خاض الاثنان داخل الغرفة، معركة زادها الصمت حدة.. حاولت لورا جاهدة عدم الاستسلام إلى إرهابه. لكنه رفض تركها. وحين أغمضت عينيها أخيراً، أحست فجأة بالحرارة والتعب... فقال لها:

ـ أستطيع لورا.. ألا أستطيع؟

خرج نفس عميق من صدرها ترافقه حشرجة عميقة:

ـ لا!

كانت تعرف ما يحاول فعله، وتعرف أنها بدأت تضطرب لإحساسها بقربه منها وتأثيره الجسدي عليها:

ـ لورا.. تبدين كحورية الثلج.. لكن عينيك وفمك يكذبان هذا... هل ستقبلين الدعوة؟

ردت بوضوح وتحدي:

ـ لا...

فضحك، ورفع لها رأسها متمتماً بوحشية:

ـ جيد.. سأستمتع إذن بإقناعك!

* * *

٥ ـ ملك ذراعيه

حاولت لورا التملص منه، لكنه أطبق ذراعيه عليها وأحكم إمساكها فقال بهدوء قرب أذنها:

ـ قد نلعب بسهولة أو بخشونة. أهكذا تحبين اللعب؟ هل تتمتعين بالألم لورا؟

خرجت كلمات الرد فحيحاً من بين أسنانها:

ـ وهل تؤلمني لو قلت لك نعم؟

أخافتها ضحكته:

ـ أجل.. فأنا على استعداد دائماً لاختبار جديد.

ـ جديد؟

ـ صدقي أو لا تصدقي.. فأنا لم أضطر يوماً إلى استخدام العنف لأنال ما أريد.. لكن إذا كنت تحبين العنف...

أعلمتها نظرة واحدة إلى وجهه أنه سيتعمد إذلالها، والإذلال هو ما يشبع غرضه الشيطاني. أحست للمرة الأولى بخوف يطغى على مشاعرها.. فقالت متوسلة:

ـ سايمون.. أرجوك.

قاومت بضراوة لكن دموعها راحت تفر من عينيها، فانسابت على كتفه، ثم على يديه اللتين بدأتا تؤلمانها بالمداعبات.

سدّت شهقة رعب حنجرتها... كانت تقنع نفسها بأنه لن يقدر

على إغوائها وهذا يعني أنها ستبقى آمنة من الذل النهائي...

تأوهت وهي تدفع وجهه عنها بيدين مرتجفتين:

ـ توقف عن هذا.. سايمون.. أرجوك؟

رفع رأسه ليقلد صوتها ساخراً:

ـ سايمون.. أرجوك! هل يكفيك هذا العنف لورا، أم تريدين المزيد؟

أحست لورا بأنها تكاد تختنق، لأنه كان يضغط وجهها على كتفه القاسي... وهذه كانت غلطته.. فحتى الآن كان يعرف ماذا يفعل بالضبط. ثم تنهد قائلاً:

ـ لا... يا إلهي.. أنت تدفعيني إلى الجنون. أستطيع أن أفعل بك ما أريد.. لكنني لن أفعل... فأنا أكبر من أن أفعل هذا.. لأنني أحتاج إلى الراحة.

جعلتها سخرية الموقف، تبتسم:

ـ وكم عمرك؟

ـ ثلاثون.

رفع رأسه يتأملها بهدوء، ثم قال بصوت رقيق:

ـ أنت جميلة رقيقة.. ولقد آلمتك.

ـ أجل.. لقد آلمتني.. لكن ما عاد الأمر يهم الآن.

ابتعد عنها، وأبقى يديها بين يديه:

ـ بل يهمني أنا... تعالي إلى حفلة فرانسيس لورا... أرجوك.

رفعت رأسها إليه مذهولة يشوب ملامحها الغضب:

ـ لماذا؟

ضحك... ومرر يده على شعرها، وقال:

ـ أريدك أن تذهبي.. لكن حذار أن تسأليني عن السبب.. فأنا أعتقد أننا سنمضي سهرة ممتعة معاً.

ـ وتنهيها بنشاط ممتع آخر، ربما في في سرير في مكان ما؟

ـ ربما.. لكن هذا لن يحدث إلا إذا رغبت أنت فقط. أنت لا تحبين التعقب المبالغ فيه.. أليس كذلك؟

فهمست مرتجفة:

ـ لا.

ـ أنت لست بالساذجة حين يتعلق الأمر بالإغراء لورا. لا بد أن هذا ولد معك. هل كنت شيطان إغواء قبل أن تولدي على الأرض؟

ـ لست...

وصمتت.. لن تقول له إنها لم تمارس فتنتها من قبل إلا عليه.

إنه جذاب جداً... يملك سحراً يخلب الألباب، سحراً ترفضه وترفض الاعتراف بتأثيره العميق عليها. اضطرت وهي بين ذراعيه الآن، إلى الاعتراف بأنها توشك على الوقوع في حبه.. وهذا كله مبني على واقع بسيط، هو أن التجاذب الجسدي الذي اشتعل بينهما منذ البداية، كان بداية ثقة وحب، اعتماد وحاجة، ولعل هذا ما كان يخيفها. لكن الحب بحاجة إلى جذور، وإلى وقت أطول للتعارف... سألته بريبة:

ـ ألم نكن نعرف بعضنا قبل الآن؟

شيء ما لمع وراء الشعاع الأخضر في عينيه، ثم اختفى:

ـ ولماذا تسألين؟

ـ أحس بأنني أعرفك.

رد بصوت خفيف، ويده ترجع خصلة من شعرها إلى الوراء:

ـ ربما التقينا من قبل في حياة أخرى.

ضحكت لورا، وقالت بسخرية حلوة:

ـ لدي ما يكفيني من مشاكل في حياتي هذه، لذا لن أقلق بالي بالتفكير في حياة أخرى... أتعرف.. أتصورك قرصاناً، من

العصور الوسطى، ترمي بروایاتك الخالدة ما بين السحرة، واللصوص، والمغتصبين..

قطب بشدة، وقال بنفاذ صبر حقيقي:

ـ كان بإمكانك التوقف عن هذا التهجم.. لكنك تتعمدين إثارتي وعليك تحمل النتيجة. عليك أن تكتبي رسالة قبول لدعوة فرانسيس.

قبل أن تكتبها، غيرت ملابسها، فارتدت فستاناً يغطي ذراعيها وعنقها، لأنها لم تشأ المخاطرة من جديد.. رفع حاجبيه عندما رأى ثيابها الرسمية، لكنه لم يعلق. تقدمت إلى الطاولة، لكن قبل أن تضع القلم فوق الورق قالت بهدوء:

ـ هل تريدني حقاً أن أذهب، سايمون؟

ـ ألم أوضح لك رغبتي هذه؟

لامس الاحمرار بشرتها:

ـ أجل.. لكن.. حسناً.. ليس لدي شك في أن فرانسيس.. أوه.. تباً.. أنت تعرف ما أعني... إذا كنت تسعى إلى علاقة عابرة، ففرانسيس مستعدة، وهي تعرف قواعد اللعبة.. أما أنا فلا أريد علاقة من هذا النوع.

فابتسم، وبدا واثقاً من نفسه:

ـ أعرف هذا. يا فتاتي العزيزة، ولكنني لا أهتم بفرانسيس، كنت قادراً على قبول عرضها منذ سنوات، لكنني لا أشكو من حسن التمييز... اكتبي رسالة القبول وكوني فتاة طيبة، وعندها سأصطحبك إلى العشاء.

ـ رشوة؟

ـ لا.. بل مكافأة على قبولك الدعوة عن طيب خاطر.

بعد أن كتبت رسالة إلى فرانسيس، تركت مذكرة لكايت تقول

فيها إنها خرجت مع سايمون.

خلال النزهة أظهر لها سايمون أنه رفيق مسلٍّ ومرح، وقد شعرت بعد عودتها بأن حبها له قد ازداد وبأن ما شهدته من عنفه قد غدا في طي النسيان.

حين أوت إلى الفراش سبحت في خيالات جعلتها تحمر خجلاً في الصباح.

كان الفصل يضمحل مسرعاً نحو الصيف، وفي الأيام التالية، لم يقترب سايمون منها، فأحست بها تطول. كانت لورا خلالها تمارس لعبة التنس في النادي بعد أوقات العمل، فترهق نفسها حتى تكسب فكأن أن جعلها هذا الإرهاق تغرق في نوم عميق كلما أوت إلى فراشها.

ظهرت أولى ملكات الفراشات في الحدائق، وهي فراشة برتقالية وسوداء، رائعة الجمال، تطير بخفة توحي بالثقة.. حطت على إصبع لورا التي كانت جالسة في الحديقة فراحت الفراشة ترفرف أجنحتها ببطء وكأنها تحاول تبريد نفسها في النسيم الخفيف.

ـ ما أجملك!

سمعت صوت سايمون يأتيها من خلفها.

ـ لا أتعجب حين أرى الأرانب تثبت على أطراف قدميك ولا أستغرب حين أرى العصافير تقف لتبوح لك أسرارها.

قفز قلب لورا من مكانه، لكن سخرية صوته العميق جعلتها تعجز عن الابتسام. فقال:

ـ آه... يجب أن أبتعد عنك أكثر إذا كان هذا هو ما سأحصل عليه حين عودتي!

ـ كنت أبتسم للفراشة.

وأمسك بيدها، فارتعبت الفراشة وطارت بكل جلال وهيبة نحو

مجموعة زنابق. قال لها:

ـ فتاة الطبيعة.

ـ لماذا أخفت الفراشة؟

فضحك:

ـ لأنها تعيق طريقي، وتفعل ما أود فعله.

ورفع يدها إلى فمه يقبلها بخفة، حتى أحست بشحوب مفاجيء، ترافقه رغبة شديدة.

ـ تعالى معي إلى الشاطيء اليوم.

تخاصم الحذر والقبول في نفسها، ففاز القبول:

ـ حسناً.. أمهلني عشر دقائق.

اصطحبها إلى شاطيء لم تزره من قبل، فتسلقا تلة مغطاة بالأشجار ثم وصلا إلى خليج صغير، يشبه مغارة، تغطيه صخرة حمراء مرتفعة عن البحر. قربها، أشجار صنوبر تمد أذرعها فوق منطقة معشوشبة رملية، لتظلل بقعة من الرمال الفضية، وإلى جانب الخليج، كان هناك بيت، منخفض البناء، ملطخ الجدران، نوافذه العريضة مقفلة في وجه أشعة الشمس.

قاد السيارة إلى خلف البيت، ثم توقف في ما يشبه المرآب:

ـ أهلاً بك في منتجعي.

ـ قلت إننا سنذهب إلى الشاطيء.

ـ يا طفلتي العزيزة، بإمكانك قضاء يومك كله على هذا الشاطيء.

ـ أتعيش هنا؟

ـ أجل.. فأنا أحب العزلة حين أعمل. فالمنزل عند شقيقتي كالسيرك معظم اليوم، لذا ألجأ إلى هذا الشاطيء.

ـ قابلت ابنة أختك منذ مدة.

ـ مارلين؟ إنها متوحشة مخيفة. لها إرادة والدها، وقلب أمها الرقيق. والصبي نسخة عن دان. لا يعرف رقة القلب أبداً.

ـ وهل تظن رقة القلب مهمة؟

ـ يقال إن المرء ينجذب إلى الفضائل التي لا يملكها.. هل أنت رقيقة القلب لورا؟ لا أظن أنني هكذا.

ـ لا.. لست رقيق القلب أبداً.

كانا قد دخلا البيت وهو عبارة عن غرفة واسعة ذات نوافذ كبيرة تكاد لا تفصلها عن الخارج. سألها عامداً:

ـ ما الذي يجذبك إليّ إذن... هل هي القساوة؟

ـ لا.. فالقساوة لا تجذبني، بل تخيفني وأنت تعرف هذا.

ـ ستقولين لي الآن إن الرقة هي التي تجذبك، لكنك ستكذبين. أنت بحاجة إلى من يحكمك، سيد، شخص ينتزع الاستجابة التي ترفضين إعطاءها بسهولة.

وضع يده بخفة فوق كتفيها، وأخذ يداعب أذنها من الناحية الأخرى، فانتفضت:

ـ أترين.. ها أنت تقاومينني.

ـ إنني على ما أعتقد شخصية عادية.. أما أنت فلا تعرفني جيداً فكيف تشرّح نفسيتي.

ـ لا... بل أعتقد أنك فريدة من نوعك.

أخفض رأسه ليقبل أطراف شعرها، رقته الآن أربكتها، وجعلتها تريد منه أن يقبلها... تريد أن يأسرها بين ذراعيه بغير هذه الطريقة، عاصفة لهب ألهبت بشرتها.. فنظر إلى تضرّج وجنتيها بسخرية وقال:

ـ حين تشعرين برغبة، تثقل عيناك، وتصبح كغيمة حامل بالعاصفة في سماء مكفهرة.

أحست فجأة، بجفاف فمها، فسألته بحماقة:

ـ وماذا عنك؟

ضحك، وعقد ذراعيه حول خصرها:

ـ كما ترين... لا تخافي، فلن أغويك اليوم. على الأقل ليس قبل أن تشيري بدليل قاطع إلى أنك ترغبين كما أرغب أنا إلى أن نكون معاً، وعندها لن تندمي.

ـ أعتقد أنني أبدو غبية أمامك.

ـ لا.. ولماذا تعتبرين نفسك غبية؟ كل ما أفكر فيه، هو أنك صغيرة لا تملك تجارب، لكن ربما حدث في ماضيك ما صدمك وجعلك تفقدين الذاكرة وربما ما زالت تلك الصدمة تؤثر عليك حتى الآن. وبما أنني لا أهتم كثيراً بالنساء، كما تلاحظين، فأنا أكثر من سعيد لقضاء يوم حب سعيد معك.. موافقة؟

ـ موافقة.

ـ إذن إلى السباحة أولاً.

ومد يده إلى قميصه ينتزعه من فوق رأسه.. فأفلتت صرخة صغيرة منها. فنظر إليها مذهولاً:

ـ ماذا جرى.. ما بك؟

ـ كتفك.

مدت يدها لتلمس آثار جرح عميقٍ قصير:

ـ سايمون.. كيف أصبت به؟

في صمته، إحساس غريب بالانتظار. حين راح اصبعها يمر فوق الندبة البشعة أحست بالرعب من تخيلاتها، فتصرفت بردة فعل عنيفة، حتى أن رأسها راح يؤلمها من حدة مشاعرها. ودون وعي منها، قبلت مكان الجرح. وهمست بعد أن خافت من ذلك العمق:

ـ كيف أصبت به؟

- حادث سيارة.

- آسفة.. لا بد أنني جننت.

- إنه ليس بالمنظر المستساغ... ارخي أعصابك لورا حدث هذا منذ سنوات..

مرت نصف ساعة قبل أن يزول ألم رأسها، بعد ذلك مر اليوم بسعادة... فقد أمضيا النهار تحت سماء زرقاء زمردية وقرب بحر رائع، تهمس أمواجه على الشاطىء الناعم. سبحا، وتشمسا، واستكشفا معاً جوانب الشاطىء المحيط بهما، تناولا الطعام وشربا المرطبات التي كانت في البراد... وبعد ذلك نامت لورا متوسدة ذراعيه، في حين أن ذقنه استراح على قمة رأسها.. وعرفت، دون أدنى شك، أنها تحبه، حباً لا يمكن تغييره، حباً ليس له بداية أو نهاية.

ورغم حبها هذا لن تسمح له بالتمادي.. فلو تمادى ثم رحل لن يأخذ قلبها فقط، بل سيأخذ كل ما يجعل لحياتها قيمة.

بعد قليل من استيقاظها، تحرك. وتمتم شيئاً.. ثم قال بوضوح:

- حبيبتي... منذ متى استيقظت؟

- منذ وقت ليس بطويل.

فتمتم بكسل:

- جميل أن يستيقظ المرء فيراك أمامه.

- وجميل أن أستيقظ فأراك أمامي.. أكانت فرانسيس تقول الحقيقة عندما قالت إنك دعوتني إلى حفلة أختك عوضاً عنها لأنها لم تستطع الذهاب معك؟

- لا... أبداً.. بل إن روزماري هي من طلبت مني دعوتك.. قد أمر بلحظات ضجر، لكنني لا أدعو غرباء إلى منزل شقيقتي،

دون موافقتها، ومع أن فرانسيس عزيزة على قلبها لكنها لا تعجب دان، وشقيقتي تحرص على مراعاة مشاعر زوجها الذي ربما يحترم والديها، لا ابنتهم المتهورة، ومن المنصف أن أضيف أن المشاعر هذه مشتركة.. وفرانسيس تخافه.

- اوه.. وكذلك أنا.

- حقاً؟ إنه شخصية قاسية، لكن بما أن روزماري تحبك فلن يأكلك، كما أنني أحميك منه.

- وأخافك أنت كذلك.. أنتما متشابهان.

فارتفع صدره ضحكاً:

- أهكذا تشيرين عادة إلى خوفك؟ تبدين مرتاحة بين ذراعي، وكأنك ملكهما، ألا تودين أن تكوني ملك ذراعي؟

- حتام؟

- وهل هذا مهم؟

فشدها إليه وفي عينيه نظرة غريبة أخافتها.. وجعلت قلبها يتوقف عن الخفقان لحظات لكنه لم يلبث أن اندفع حياً:

- قلت إنك لن تلجأ إلى إغوائي.. سايمون أرجوك.

- سألتك: هل يهمك معرفة المدة التي سأبقى فيها على حبك؟

- أجل.

- لماذا؟

- تعرف لماذا. قلت لك إنني غير مستعدة لعلاقة عابرة.

- وماذا تقصدين بـ «علاقة عابرة»؟

حاولت الابتعاد عنه لكنه منعها فقالت:

- مثل هذه.. سايمون لا تكن متوحشاً! لماذا لا تصدق أنني لا أريد أن أكون عشيقتك؟

- لأنك حين تكونين بين ذراعي، ينتفض هذا النبض في عنقك

كعصفور وجل، قد ترفضني شفتاك، لكن جسدك يبعث إلي رسالة مختلفة.. ومهما قلتِ.. ومهما حاولتِ إقناعي بالعكس، فأنت ستتمتعين برفضي لاعتراضاتك.

ـ أنت كريه.

وتدفق الدم إلى وجهها خجلاً. ضحكته حركت خصلات شعرها.

ـ أعرف هذا.. لكنني لن أغويك لورا. حين تقبلينني سيكون قبولك لأنك تريدين ذلك. لأنك اقتنعت نهائياً في أعماقك، أن لا داعي إلى خشيتي... عندها.. عندها يا لورا.. سأريك كيف يكون فقدان الذاكرة الكامل. سوف أجعلك تنسين أي شيء إلا المشاعر والرغبات التي ستتاكلك إذا لم ترضها.

وصمت.. فأحست بقشعريرة الخوف من جديد... فأردف وخيط رفيع من التسلية في صوته العميق.

ـ وعليك أن تصدقي هذا.

ـ قرأت، وسمعت، أكثر من مرة، أن حب الفتاة الأول يجلب لها الألم، إذا لم يكن حبيبها رقيقاً عطوفاً معها.

ـ أتحاولين الإيحاء بأنني لست رقيقاً أو عطوفاً؟ حسناً يا سيدتي ما عليك سوى الانتظار.. وسترين.

خلال فترة العصر، كان ودوداً مرحاً، يعاملها وكأنها رقيقة ذكية، دون أن يشير إلى أنها مثيرة.. ووجدت لورا نفسها في البداية مشدوهة، ثم غاضبة. إنه يعرف بالضبط ما يفعل..

حين قبلها على خدها بخفة عند باب شقتها هامساً:

ـ تصبحين على خير... سأنتظر على أحر من الجمر حتى تكوني مستعدة.

أجبرها الغضب على هز كتفيها دون اكتراث، لكنه عرف أنه

سيطر عليها. لقد أصبح لها بطريقة ما ضرورياً، كالطعام والهواء ونور الشمس. جزءاً أساسياً من حياتها.

* * *

٦ ـ أنتِ لي

كان حظ فرانسيس طيباً، لأن الطقس يوم مولدها كان رائعاً للاحتفال. وكان قد مر أسبوع من الأيام الرائعة المشمسة التي تحدث عنها المزارعون بتفاؤل حذر، ذاكرين أن هذه السنة هي إحدى السنوات التي تجعل من سنوات القحط والرياح وأمراض المزروعات قيد النسيان. لأن فيها، هطل ما يكفي من مطر لإبقاء العشب أخضر. وراقب مزارعو الخضروات بفخر نمو الطماطم، والذرة، والفلفل الأخضر.. كما راقبوا الأشجار المثمرة من الخوخ والدراق والتفاح المتدلية منها كعناقيد العنب التي انعقدت بدورها.

وصل سايمون ليرافقها إلى منزل شقيقته، وكالعادة كان السحر بعينه.. حين انطلقت بهما السيارة رمقها قائلاً:

ـ هل أغضبتك؟

ـ لا.. أبداً.

ـ إذن... استرخي... روزماري في شوق إلى أن تراك وإلى أن تقيمي عندها.

ـ وماذا عن دان؟

ضحك:

ـ دان يريد أن تحصل روزماري على ما تشاء، لذلك ترينه في شوق إلى رؤيتك أيضاً.

ملأت ضحكته السيارة.. وسرعان ما وجدت نفسها تضحك معه.

ـ هذا أفضل. ظننتك ستبقين عابسة.. تذكري... أنت لي.

ـ أنا رفيقتك.

ـ نعم إذا كان ذلك يجعلك سعيدة.

وأمسك بيدها ووضعها على فمه ثم أضاف:

ـ أنت ذكية لورا!

مد اصبعه ليلمس مكان النبض في المعصم، ثم أعاد يدها بعد قليل إلى حجرها، ليقول بطريقة غريبة:

ـ أتمنى.. أحياناً.. أتمنى لو تُعاد الحياة.

ـ ستكون عندها رؤية رائعة.

ـ أنا متأكد من أن هذا حدث من قبل. قرأت كتاباً عن رجل أعيد إلى الحياة كي يحيا حياته من جديد، بعد أن قرر ألا يفعل أي عمل ندم عليه في حياته السابقة... لكنه وجد أنه مضطر، حسب المواقف، إلى القيام بالأخطاء نفسها.

ارتجفت لورا:

ـ أكره التفكير في أن هذا ممكن.

ـ أظن أن هذا صحيح، ما الإرادة الحرة إلا وهم.. أنت مثلاً، لا تريدين أن تكوني الآن معي.. ومع ذلك جئت لأنني أقنعتك، مستخدماً أساليب ليست قويمة، ولأن هناك بعض الروابط التي لا يمكنك تحرير نفسك منها.

ارتجفت ثم سألته:

ـ وماذا عنك؟ ماذا تفضل أن تفعل الآن؟

ـ يا فتاتي العزيزة.. أيجب أن تسألي؟ أفضل أن أكون معك على سرير عريض في منزل صغير، يبعد مئة ميل عن أقرب كائن

حي، حيث أبقى فيه عدة أشهر في عزلة تامة.

واستمر يتكلم، لكن لورا صمَّت أذنيها عن سماع كلماته، بوضع يديها على أذنيها إلى أن شاهدته يضحك، قائلاً بصوت مرتفع:

ـ خجلت! إذا أردت ادّخار الخجل فلا تسألي أسئلة مثيرة!

مالت لورا إلى الأمام لتدير الراديو وهي تفكر في أن عليها يوماً ما أن تضبط لسانها!

حين وصلا وجدت لورا أن لا مجال لحديث آخر بينهما ذلك أن لورا تعرفت إلى مارلين وأخيها، الذي هو أكثر هدوءاً وتحفظاً، والذي له نظرة أبيه المباشرة الواضحة.

لم يكن دان هناك لكنه جاء وقت الغداء الذي تناولوه على باحة مرصوفة بالحصى حول بركة السباحة... روزماري كانت طيبة كعادتها وسايمون كان مسترخياً أكثر من أي مرة شاهدته لورا فيها، فما كان منها إلا أن استرخت أيضاً، وحين أزف أوان العشاء كانت في شوق للذهاب إلى الحفلة.

عندما نظرت إلى صورتها في المرآة، برقت عيناها، لأنها بدت متألقة، غامضة، شاحبة اللون كأحجار العقد المتدلي فوق جيدها الجميل.. أما اللمسة الوحيدة من المكياج فكانت على شفتيها المكتنزتين.

عندما شاهدها سايمون، بدا أن جمالها حرك أعماقه مع شيء من القنوط. وقال لها لتسمعه وحدها:

ـ أهلاً بك.. سيدتي الجميلة!

ـ وهل أنا جميلة حقاً؟

ابتسم وقد استعاد سيادته على نفسه، ومد ذراعه يتأبط ذراعها.. لينطلق معها في سيارته، ثم تبعتهما أخته وزوجها في سيارتهما. لم يكن منزل آل باركر يبعد إلا بضعة أميال، لكن لورا أحست بأن

قلقها السابق قد عاد، بل ازداد بسبب هواجسها التي لم تتركها يوماً.

كانت الأمسية لطيفة، باردة، صافية، جعلت من الرقص متعة، لكن رغم البرودة كان في الجو بعض الدفء الذي سمح بالخروج خارج المنزل، وكان كل شيء يتوالف ليؤلف أمسية رائعة، وكانت لورا تعلم أنها تبدو فائقة الجمال، بحيث ستكون هي الليلة مثار حسد كل امرأة متزوجة أو غير متزوجة.

قالت فجأة:

ـ سايمون..

ـ ما بك؟

ـ لا أريد الذهاب إلى الحفلة.

فقطب:

ـ لقد بحثنا هذا الموضوع من قبل، ليس أمامك إلا الذهاب؟

عضت على شفتها وقالت ببرود:

ـ لا أريد.

ـ إنه خيارك الوحيد.

ـ أنت متوحش! أحياناً أظنك تكرهني.

ـ أنا لا أكرهك.. بل أحتقر نفسي بسبب رغبتي فيك ولذا أرفضك لكنني لا أكرهك... لو لاحقتني لاختلف الأمر لكنك لم تحاولي.

ـ طبعاً لم أحاول... ولماذا تحدث الأمور هكذا؟

ـ من يعلم... الرغبة شعور آسر مجنون، والطريقة الوحيدة لتحطيم أغلالها هو الاستسلام لها.. لكنك لن تستسلمي.

ـ أفضل الموت!

ـ أهذا هو رد فعل العذراء التقليدي لدى مواجهتها حقائق

الحياة؟ أم أنك بالفعل تشعرين بأن هذا قد يميتك؟

ـ قلت لك من قبل إنه قد يميتني.

ـ مع ذلك فستنقادين إليه، ولا يهمني إذا كنت تكرهينني. فكل ما أريد هو أن أحس بك بين ذراعي.

راح يتخبط شيء ما في داخلها.. موجة ساخنة، تبعث الوهن، اندفعت في شرايينها من جرّاء كلماته التي بعثت فيها رؤى مثيرة. فأطبقت يديها لتضغط أظافرها على راحتيها، لعل الألم يعيد إليها تعقلها.. قالت بصوت ثابت جاف:

ـ أنا واثقة بأن الحب رائع... لكن نتائجه هي ما تقلقني.

انعطفت السيارة ومرت بين عمودين ضخمين قديمين من الحجر الصخري، عليهما نبات اللبلاب. كان الممر مظلماً تحت أشجار السنديان الكثيفة.. قال سايمون ببرود عندما دخلا إلى فناء مرصوف:

ـ سنتابع هذا الحديث المثير فيما بعد.

ـ لماذا لا تتركني وشأني؟

ـ لأنك كالوباء... يجب أن تفتكي بجسدي كله قبل أن أشفى منك! وأنت إلى الآن لست سوى حمّى تسري في دمي.

أوقف السيارة، والتفتت إليها مضيفاً:

ـ ولسوف أمسك بيدك حتى نعبر مراحل المرض كلها وصولاً إلى فترة النقاهة، والصحة الكاملة... بغض النظر عن مخاوفك ورؤاك.

ردت عليه متحدية:

ـ شكراً لإنذاري... سأتأكد من ألا أكون وحدي معك بعد الآن.

ـ أنت جميلة.. تذكرينني بهيلين الطروادية..

ـ أنت شاعر الليلة...! أولاً تقول لي سيدتي الجميلة والآن تشبهني بهيلين الطروادية.

ـ لكن الوصفين لامرأة واحدة..

بدت فرانسيس رائعة في ثوب حريري أخضر، أظهر تقاسيم جسدها، وقد أضاف إلى جمالها جمالاً القرط الزمردي الذي اشترته من المحل الذي تعمل فيه لورا... استقبلت لورا بترحاب مفرط بدا زيفه واضحاً، ثم تركت نظرها يستقر بشوق على سايمون مدة طويلة، بعدئذ رافقتهما إلى قاعة تضج بالناس.

إنها الحفلة الأولى الضخمة التي تشارك فيها لورا، منذ فقدانها الذاكرة.. لكنها وجدت للحفلة في نفسها صدى مألوفاً، وكأنها شاركت في العديد منها سابقاً... وهذا أمر غريب.. لأن الفتيات في الثامنة عشرة من عمرهن، لا تكون لهن حياة اجتماعية ناشطة.

قد يشمخ بعض الأثرياء برؤوسهم عندما يرون كاتباً روائياً. لكن نظرة واحدة إليه من قبل المدعوين جعلت من يشمخ من هؤلاء يدرك أنه مخطىء.. إذ سرعان ما اكتسب سايمون احترام الجميع، وبينما وجده الرجال مثيراً للاهتمام وجدته النسوة فاتناً بسحره الأسمر.

واستجاب لهن بالطبع.. لكن دون أن يترك شكاً في من هي رفيقته... راح جزء بدائي من لورا يستمتع بتصرفاته المتملكة نحوها.. لكن الجزء الآخر بدا متوتراً.

حين دعاها للرقص شاب، كان ينظر إليها منذ وقت بإعجاب كادت تقبل لولا ذراع سايمون التي التفت حول خصرها قائلاً: لا.. أما عيناه فكانتا تقولان دون حرج: هذه لي، وإذا كنت تعرف صالح نفسك ابتعد عنها... وهذا ما فعله الشاب الذي احمر خجلاً، وانسحب مسرعاً مما دل على مدى تأثير نظرة سايمون

الغاضبة عليه. ولم يلبث أن قادها نحو الحلبة وراح يراقصها:

ـ هل غضبت؟

ـ قليلاً.. أكان يجب أن تكون قاسياً؟

اشتدت قبضة يده عليها، حتى تلتصق به:

ـ أجل... فقد كان يتعدى على أملاك الآخرين.. وهو يعلم هذا.

ـ أوليس لرغباتي وزن عندك؟

ـ أكنت راغبة في مراقصته؟

ـ اوه... اذهب إلى الجحيم أيها الوغد المتعجرف!

ـ صه... قد يسمعك أحد..

أحست بالخوف فجأة، قلّما رفعت بصرها إليه، توقف عن الرقص قائلاً:

ـ ماذا؟ ما الأمر؟

نظرت حولها وكأنها خائفة من شيء سيظهر لها:

ـ لست.. لست أدري.. سايمون أود العودة إلى منزلي.

ـ لا.

حين حاولت الاحتجاج قادها إلى الشرفة وأوقفها هناك مديراً ظهره إلى الأضواء ليخفيها عن النظرات الفضولية، فقالت متوسلة:

ـ اوه... سايمون...

اجتاحتها موجة من الغثيان، كما ملك عليها لبها إحساس بالعذاب جعل أنفاسها تضيق بها، فقال لها آمراً بصوت هادىء عميق:

ـ استرخي.. ولا تحاولي أن تتذكري شيئاً حبيبتي... دعي هذا الشعور يمر... وستعود الذاكرة متى حان أوانها.

ارتجفت لورا وبرقت عيناها بلون قاتم..

مرت موجة الغثيان ببطء، وتركتها واهنة ضعيفة، ترنحت متنهدة ثم أرخت رأسها على صدره.. فأمسك بها لحظات حتى توقف جسدها عن الارتجاف، وحين عاد اللون إلى وجهها الشاحب. قال لها هامساً:

ـ أتساءل ما إذا كانوا سيجدون الأمر غريباً فيما لو طلبت لك الشاي الساخن... لكن سأخاطر، فقد يعتقدون أن هذا سببه جنون العبقرية.

فابتسمت له وهو يُجلسها على مقعد قريب.. وبقيت تثبت نظرها عليه ما دام هو على مرمى البصر وبعد أن غاب عن ناظريها، نقلت نظراتها دون اكتراث إلى ما حولها، تحس بالانكماش، وتتساءل لماذا تأثرت هكذا من توبيخ سايمون لها.. ترى إذا عرفت السبب، هل ستعود إليها الذاكرة.

نظرت إلى فرانسيس بعض الوقت دون أن تعي من هي... ومرت بضع لحظات أخرى قبل أن تدرك أنها تتقدم نحوها، لكنها كانت تحس بأنها مخدَّرة، فتمنت أن يصل سايمون لينقذها من فرانسيس، إلا أن شعورها بأنها معتمدة عليه كلياً زادها سقماً.

تناهى إليها صوت فرانسيس الزائف المرح:

ـ أتشعرين بالحرارة؟

ـ قليلاً.

جلست فرانسيس قربها، وهي تلمس قرطها:

ـ ظننتك تعودت على صيف الجنوب... أتعلمين أن سايمون متزوج؟

سمعت مثل هذا القول من كايت قبل الآن، لكنها لم تصدقها.. ففرانسيس تعيد الأسطوانة ذاتها لذا لن تصدقها..

ردت بصوت مهذب جعل الفتاة التي تكبرها سناً تنتفض:

ـ لا..

ـ حسناً.. إنه متزوج من امرأة شهيرة في لندن. منذ سنتين، ولم أعتقد أنه سيخبرك.. ما إن عرفت...

وكأن فرانسيس تلمح لها بأنها ما إن عرفت الأمر حتى تخلت عنه.

إنها كاذبة، لأنها ما تزال منجذبة إليه بعنف. فلو أشار إليها بإصبعه لرمت فرانسيس نفسها بين ذراعيه، متزوجاً كان أم غير متزوج.. مع أن لورا لا تصدق أن له زوجة..

ـ ومن أخبرك؟ (قالت).

ـ اوه.. الأمر معروف في الوسط الروائي والمسرحي، عمتي صديقة إحدى الممثلات والتي تعرفه جيداً، وهي من أخبرتها... آسفة إذا صدمك الأمر.. لكنني أحسست أن من واجبي أن أخبرك قبل أن تتورطي.

تقدم سايمون في هذه اللحظات حاملاً فنجان شاي، فراقبته لورا وقلبها ينقبض حتى أصبح كرة قاسية في صدرها. حين اقترب رفعت صوتها قائلة:

ـ أهلاً سايمون.. لقد أخبرتني فرانسيس لتوها أمراً مذهلاً عنك.

سمعت لورا تحشرج أنفاس الفتاة الأخرى التي استدارت بعنف نحوه وعلى وجهها آثار العذاب وهي تهذي بكلام غير مفهوم:

ـ اوه.. ساي.. أنا...

ناول سايمون الفنجان إلى لورا قائلاً بهدوء:

ـ حقاً؟.. هيا اشربي هذا لورا.

ثم نقل نظرته القاتمة إلى فرانسيس وسألها بصوت خشن سمَّرها في مكانها:

ـ كنت تروين القصص عني؟

أحست لورا بالخوف والخجل من نفسها. فرانسيس كانت تريد إيلامها، لكنها تصرفت بأسوأ منها... إنه صراع قطط.. حول الذكر!

قالت لورا محاولة استعادة المبادرة:

ـ انس المسألة سايمون.

لكنه تجاهلها وسأل بصوت منخفض:

ـ فرانسيس..؟

كان الشر كله متمثلاً في هذه الكلمة.. لذا لم تدهش حين شاهدت فرانسيس ترتجف، تحرك فمها بعض الوقت، لكن بصمت، ونظرت إليه متحدية ثم تلاشى التحدي من عينيها، وارتسم فيهما تعبير ذليل جعل الغثيان يعاود لورا بقوة.

ـ قلت لها.. إنك متزوج.. أنا آسفة سايمون.. لم أشأ.. لقد أردت...

صمتت ثم مدت يدها تلامس يده، هامسة:

ـ آسفة..

وارتدّت على عقبيها كالمجنونة تولي هاربة من الشرفة إلى المنزل...

وضعت لورا بحذر الفنجان من يدها على طاولة صغيرة.. ثم ترنحت حتى كادت تقع، فالتقطتها يدان قويتان منعتاها من الوصول إلى الأرض، ثم حملتاها تقريباً وشدتاها إلى صدر كان القلب فيه يخفق بغير انتظام.

* * *

٧ ـ بيت الشاطىء

كانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحاً حين آوت لورا إلى الفراش.. ومع أنها كانت مرهقة، إلا أنها استلقت ساعات في غرفة النوم الفاخرة في منزل آل دالتون، تراقب النجوم من النافذة.

في الحفلة مرَّ إغماءها دون أن يلاحظه أحد. لكنها عندما عادت إلى وعيها وجدت أنها ما تزال بين ذراعي سايمون الذي أجلسها، وأصر على أن تكمل احتساء الشاي. بعد لحظات صفا رأسها، وأعطاها دفء الشراب قوة لتتجاهل ما حصل، كما تجاهله هو، ونجحت في هذا. لم يتركها سايمون لحظة، لكنه لم يكلمها كذلك. كانت المرة الوحيدة التي افترقت فيها عنه عندما راقصها دان.. وحين انتهيا كان ينتظرها ويده ممدودة ليمسك بيدها، حتى أن الجميع وقبل انتهاء السهرة بكثير، قرروا أنها وسايمون على شفير علاقة ما.. هذا إذا لم يكونا على علاقة فعلاً. أما فرانسيس فبقيت بعيدة عنهما، حتى حان أوان توديعهما. كانت وهي تودعهم تشيح بصرها عن سايمون لكن صوتها شابته برودة وارتجاف أزعجا لورا.

في طريق العودة إلى منزل شقيقته، أقنعت لورا نفسها بأنها أصبحت أسيرة، عالقة ضمن هالة مقفلة من الجاذبية والسحر المشع من هذا الرجل.

لكنها قررت الآن، وهي مستلقية في الفراش، أنه ليس ذاك السحر الذي يطبق على خناق فرانسيس. فالفتاة ترغب فيه، وجوعها إليه أمر قائم بذاته... لا علاقة له بالمرأة، ولا بالرجل، إنها تريد سايمون للرغبة ولإشباع الحاجة التي يؤمنها لها.

أما هي.. وابتسمت بحزن... هل وقعت حقاً في حبه؟ إذا كان الحب، هو هذه الرغبة الموجعة، وهذا التوق إلى أن تعطي وتعطي وتعطي، حتى تذيب نفسها بإسراف في عواطف ملتهبة... فالرد إذن هو نعم.. إنها تحبه. حاولت لورا أن تبلور عواطفها، لكن الانقباض العميق الذي يمسك بخناقها منعها... آه ليت الحب يحمل معه السعادة!

نهضت عن السرير لتسير نحو النافذة، تجذبها رغبات أقدم من الزمن نفسه. لم يكن الفجر بعيداً ولا السماء التي بدأت الظلمة تنحسر عنها، إلا أن الوقت ما زال مبكراً على كورس العصافير. وقفت لورا فترة تحدق إلى شبح رجل يسير تحت عريشة ورود وياسمين.. لا مجال إلى الخطأ حتى في العتمة النسبية، إنه سايمون غير القادر على النوم أيضاً، وكأن شياطين لا يعرفها أحد تدفعه للسير بقلق في الليل الدافىء.

فيم يفكر وهو يذرع الممر المكسو بالورد والياسمين؟

أسرعت لورا تعود أدراجها إلى سريرها. هو لم يعد إلى ذكر اتهامات فرانسيس، ولا هي ذكرتها، لكن المسألة عادت إلى ذهنها الآن كما يعود النمل إلى السكر... كان لديها قناعة بأنه غير مرتبط.

لكن.. لو كان متزوجاً لذكرت روزماري شيئاً عن هذا الأمر.. شقيقته ستعرف بالتأكيد إذا كان متزوجاً.. أحست لورا بالألم وهي تظن أن روزماري لا تهتم بها، وإلا لأخبرتها عن موضوع زواجه

هذا إذا كان هناك من زواج فعلاً.

ومن حيث لا تدري.. غطت لورا في نوم عميق، لم تستيقظ منه إلا بعد الغداء.. حين نزلت كانت روزماري تضحك وتلعب في المطبخ مع طفليها، فاستقبلت لورا بنظرة واضحة مرحة:

ـ تبدين منتعشة يا عزيزتي، القهوة جاهزة، أتودين بعضها؟

قبلت فنجان القهوة وقالت:

ـ كان يجب أن توقظيني باكراً.

فضحكت روزماري:

ـ استيقظ دان في الثامنة، وحمل الولدين معه للقيام بجولة في المزرعة، يا له من حبيب، فقد أفسح لي المجال لأنام حتى العاشرة.

ـ وسايمون؟

ـ اوه.. خرج في التاسعة، لكنه عاد. أظنه سيأخذك إلى الشاطىء بعد الظهر.

بدا الانزعاج على لورا، لكنها قالت:

ـ اوه.. أليس ساحر الروح؟ لكن عليه يوماً ما أن يسألني ما إذا كنت أريد أم لا.

دخل سايمون في هذه اللحظة ليقول:

ـ هذا مضيعة للوقت، فأنت آتية معي... ألن تأتي؟

قالت تضع القليل من المزاح في صوتها:

ـ أعرف متى أُهزم!

فضحكت روزماري، وصبت فنجان شاي لأخيها:

ـ خذ.. اشرب هذا... واصمت.. لئلا تفزع لورا.

وهذا بكل تأكيد ليس بالكلام الذي يخفي وراءه سر زواج. كان الموقف غريباً، وقد زاده غرابة جو الصبر المترقب حول سايمون.

لكنهم تناولوا الغداء، وبعد تنظيف الصحون ونقل حقيبة لورا إلى السيارة، شكرت مضيفتها على حسن ضيافتها، وتلقت بدهشة عناقاً حاراً من روزماري.

قال سايمون وهما يتوجهان إلى السيارة:

ـ كانت تتمنى لك حظاً طيباً.

ـ أحب شقيقتك.

ـ لا تدهشي، فهي عكس أخيها تماماً.

ران صمت قصير، قطعته بقولها:

ـ لقد تغيرت.

ـ اتخذت قراراً ليلة أمس.

ـ رأيتك في الحديقة، فأنا لم أستطع النوم أيضاً.

نظر إليها بسرعة وحدة:

ـ لماذا؟

ـ اوه.. من التعب.. كما أعتقد، كانت أمسية غريبة.

فابتسم:

ـ توضيح مقصود.

ـ لِمَ أنت تصطحبني إلى الشاطىء؟

ـ لأنني أعتقد أن الوقت قد حان لكشف الأوراق جميعها.

طفق نبض ينبض بسرعة جنونية في عنقها.

ـ ماذا.. ماذا تقصد؟

ـ لقد ذهبت إلى شقتك هذا الصباح، وطلبت من كايت أن تعطيني المجلة التي كانت معك، قبل أن تفقدي ذاكرتك منذ سنتين. سوف نراجع كل ما فيها.

في بيت الشاطىء، صب لها كوباً من عصير البرتقال، وجلس إلى جانبها على الأريكة ثم رمى المجلة على ركبتيها.. فشهقت

ـ أصبت حين كنت أحاول إخراجها. . كانت عالقة في السيارة. . . وهي واعية. . . لكن حين وصلت المساعدة كانت أبعد ما تكون عن المساعدة.

ـ لكنك حاولت.

ـ آه. . أجل. . حاولت!

كما حاول مساعدتها هي. . . لأن جزءاً منه، ربما آخر جزء متحرر من السخرية، أحس بنوع من الالتزام. . . وهمست:

ـ تباً لك. . . لماذا لم تتركني وشأني؟ كنت سعيدة. . حتى ظهرت في حياتي.

ـ لا. . لم تكوني سعيدة. . لا تخدعي نفسك لورا. . . ما كنت موجودة، يا إلهي. . حين شاهدتك على الشاطىء لم أصدق أنك الفتاة ذاتها. كنت متقوقعة في قوقعة جليدية. أنت، يا من كنت عنيدة، عنيفة متقدة مليئة بالغضب. . لكن في الوقت نفسه، نشيطة، حية، تنبضين بالحياة! كدت أبكي على الحالة التي وصلت إليها.

ـ وهكذا صممت على إعادتي إلى حياتي.

ـ أجل.

ـ أعدني إلى منزلي.

ـ حاضر.

وهذا ما كان. . . عندما وصلت إلى منزلها وجدت فيه هيلين التي كانت سارعت إلى استدعاء فيليستي مارلو، التي أعطتها منوماً، لكن قبل الفجر بوقت طويل، استيقظت. . وبينما كانت السماء شرقاً تنحسر عنها الظلمة والفجر يبدأ بعزف ألحانه استعداداً ليوم رائع آخر، كانت لورا متمددة متصلبة متألمة تحت ملاءات السرير. . تتذكر مرتجفة، تصر بأسنانها لمنع تشنجات البكاء التي

إذا انفجرت أيقظت زميلتيها.

أصبحت الذكريات الآن حيّة، وكأن عقلها الباطني حافظ عليها خير محافظة، نافضاً عنها الغبار وكأنها جاهزة للاستخدام الفوري. كان والدها، فاتناً ضعيف الشخصية تركها في مدرسة داخلية، لأنها تذكره بحادثة تحطم طائرة نجت هي منها وماتت فيها زوجته. . يومذاك كانت لورا في الثالثة من عمرها، لكن الذكرى ما تزال واضحة في ذاكرتها، ولا يطغى عليها سوى ذكرى الرحلة الطويلة التي قامت بها منذ سنتين.

فهمت الآن لماذا فرض عليها سايمون القيام برحلة في الطائرة الصغيرة فوق البحر، وفهمت أيضاً أنها لن تعرف بعد اليوم الرعب الذي أدى إلى فقدانها الوعي عندما حطت الطائرة بهما أرضاً.

كم كان عمرها يا ترى حين تزوج والدها من كريستين؟ عشر أو إحدى عشرة سنة. . كانت كريستين مخلوقة نحيفة بسيطة ليس فيها إلا عينان وعظام لكنها كانت أماً ثانية لطيفة معها، تشتري لها الهدايا في الأعياد.

وكانت جميلة مثيرة ممتلئة الجسم، أنيقة، لا لأنها ثرية بل لأن لها ذوقاً رفيعاً وكانت تبدو للورا الصغيرة، أميرة من أميرات القصص الخرافية، مرحة، لامعة، أكبر بقليل من الحياة نفسها.

مما لا شك فيه، أن لورا تركت يومها المدرسة الداخلية. . . وسارت أمور الحياة على ما يرام. وكانت كريستين رائعة في تلاعبها بالكلمات. . كانت تدعوها دائماً «ابنتي الجميلة» وتتسامح معها في المصروف، وتبهرها في كثير من الأحيان. . وكانت لورا تقضي معظم أوقاتها تستكشف لندن، قانعة بحيانها. . لكن موت والدها أثر نوبة قلبية، ولقاءها المفاجىء مع سايمون باركلي دمّر علاقتها بزوجة أبيها.

بُعث كل شيء إلى ذاكرتها حياً الآن... تذكرت سايمون.. العابث المتكبر، الساخر ذا الجاذبية الشريرة. فطفرت الدموع من عيني لورا وهي تتذكر لقاءها الأول به. يومذاك كانت كريستين في المستشفى، ولورا وحدها في منزل العائلة في لندن، حين زاره نظر إليها بتعجب فتضرَّجت وجنتاها خجلاً... فقال لها والسحر يقفز منه قفزاً:

ـ يا إلهي..! ما أروعك وأجملك! كنت أظنك تلميذة مدرسة خرقاء.

ـ أنا أمام كريستي خرقاء.

ـ لا، يا فتاتي... أخبريني ماذا تصنعين وحدك طوال اليوم؟

ـ اوه.. لا شيء.

لم يكن يهدف أن يصيب وتراً حساساً فيها، لكن قوله ذكرها أن تعمل، لكن زوجة أبيها هزئت منها وأشارت بسخرية لطيفة إلى أنها لا تصلح لشيء.

ولأن لورا ما تزال صغيرة وتخشى كريستين، صمتت على مضض، كارهة الإحساس بأنها عديمة النفع، وقال لها سايمون يومها:

ـ لا شيء؟ فراشة اجتماعية فقط؟

ـ لست أية فراشة اجتماعية.. فأنا مميزة!

فضحك:

ـ إذن اقبلي دعوتي على الغداء.. فأنا بحاجة إلى من يسليني.

لم تكن دعوة ترضي غرورها، ومع ذلك، أطبقت عليها جاذبيته الشرسة إطباقاً... فاستجابت إليه باندفاع متحدية كريستين التي لم توافق على اندفاعها ذاك.

وذلك الغداء كان بداية كل شيء..

وقعت في حبه رأساً على عقب... ولم تحاول إخفاء مشاعرها.. كان متحفظاً في البداية، إلا أنه تغير فيما بعد.. علمت أنه لا يحبها، ومع ذلك جعلته يرتجف رغبة.. ولأنها كانت بريئة ظنت أن رغبته تلك بداية للحب.

كانت طفولية التفكير تظن أن حبها يكفيهما! حاول أكثر من مرة تحذيرها، ولم تصدقه... فقد ضاعت في غمار تجربتها الأولى، كانت ساذجة فلم تدرك أن مخيلتها جعلته أمير أحلامها.. عندما تذكرت هذا الآن، استطاعت أن ترى كيف حشرته في الزاوية، وأجبرته على الاختيار بين الزواج منها أو ترك المحتوم يحدث، مدمّراً به براءتها. حتى في ذلك الوقت كان شريفاً قاسياً معها.. لكنها رفضت الاعتراف بأن أحلامها الوردية كانت مبنية على أوهن الأسس: الرغبة.

أخبرته أخيراً، في ليلة من الليالي عن مدى رغبتها فيه فضحك وضمها إليها بطريقة انتقدت فيها مشاعرها.

لم يكن لها عذر.. كانت تعرف ما سيحدث ومع ذلك لم تعبأ، بل قدمت له جسدها باستسلام بريء.

قال لها يومها بخشونة:

ـ لا... لا أيتها الراغبة المجنونة الصغيرة، لن أورط نفسي في موقف كهذا، فهذا هو الحد الذي لن أسمح لنفسي بتجاوزه.

كان يريد إيلامها وقد آلمها فعلاً. كلماته القاسية لذعتها كألسنة السوط، فصفعته صفعة فيها كل ألم وعذاب الرغبة، ثم راحت تراقب بلذة بشرته وهي تصطبغ باللون الأحمر وقالت بغيظ:

ـ اذهب إلى الجحيم!

ـ إنها في طريقي! ستقودين يوماً شيطاناً مسكيناً إلى ما هو أسوأ من الجحيم. لك أخلاق قطة آتية من الشوارع وجمالها. ألست

مهتمة بما قد يحدث بيننا الآن؟

راحت تطبع قبلات صغيرة حادة على البشرة التي سببت لها الاحمرار:

ـ لكنني أريدك، أرجوك سايمون.. أحبك جداً...

فضحك، وأبعدها عنه.: يومذاك كان شعرها أطول من الآن، لأنه لم يتعرض للمقص منذ سنوات، لذلك كان الأشقر الفضي يتلاءم ولون كتفيها، كان أشبه بغيمة مرغوبة بعيدة المنال تقبع فوق القمم البيضاء البعيدة.

قال لها بقساوة:

ـ أنت لا تحبينني.. بل ترغبين في.. وثمة فرق بين الأمرين.

ـ بل أحبك.. ألا تسمع خفقات قلبي الذي يخفق لك فقط.

ـ الآن، قد تكون خفقاته لي، وفي الأسبوع المقبل قد تصبح لشخص آخر. لورا.. أنت فتاة رائعة الجمال ومغرية جداً. لكن إذا استمريت على هذا المنوال ستصبحين متحجرة الفؤاد مثل كريستين.

ـ لكنك أنت البادىء.

هز رأسه:

ـ أجل.. حبيبتي، أنا البادىء، لكنني صدقاً ندمت، أردت معرفة المدى الذي قد تصلين إليه.

تغلب الألم حينذاك على رغباتها جميعها فقالت:

ـ أعتقد أنني صدمتك.

مع ذلك، حين تحرك ليبتعد عنها تعلقت به بعذاب أحست معه بألم جسدي. فقال متنهداً:

ـ يا عزيزتي.. أنا ضد الصدمات. أنت حلوة جداً وأعتقد أنني لو لم أكن أعاني من بقايا ضمير، لقبلت عرضك الكريم، حتى أمل

منك، فأتركك وأعود أدراجي إلى حيث أريد. إلا أن اهتمامي بك يجعلني أرتد عنك منذ الآن.

وراح يمسح شعرها عن وجهها ليعيده إلى الوراء يحرك يده ببطء في الحركة الأزلية التي تجلب الراحة، ثم قال بعد لحظات:

ـ كريستين ستبذل جهدها حتى تزوجك، وقد تقدر على تزويجك إذا وضعت ثقلها قليلاً..

ـ لا أريد الزواج.. أريدك أنت سايمون.

ـ لكنني لا أريدك... اوه.. حسناً، أنا أريدك.. لكنني لا أريد تحطيمك، فأنا غني عن هذا النوع من الدعاية، ولن أقبل أن يشاع أنني أغويت قاصر.

ـ مع من تقيم علاقات إذن؟

ـ مع نساء ناضجات ذوات خبرة لا يخطئن ولا يعتقدن أنهن يحببنني. صدقيني لورا، أشكرك لأنك اخترتني حبيباً لك.. لكن الأمر لن ينجح بيننا.

جلست غاضبة وقالت:

ـ كريستين تقيم حفلة في المنزل الذي سأذهب إليه الآن لألتقط شاباً جميلاً أصطحبه معي إلى غرفتي وأتخيله أنت.

فضحك:

ـ كلمات شجاعة، لكن أخلاقك لن تسمح لك بهذا.

ـ لماذا لا ترافقني حتى ترى بأم عينك؟

ولم يصدقها، ومع ذلك رافقها إلى المنزل حيث استقبلته كريستين بالترحاب.. ما إن وطئت قدمها في المنزل حتى تجاهلته تماماً، رغم أن هذا مزق قلبها.

كان الرجل الذي اختارته، ممثلاً وسيماً واقعاً تحت رهبة الثراء والثقافة الواسعة في أوساط كريستين.. وقد سهّل عليها ذاك العبث

به، حتى إذا ما اقترحت اصطحابه إلى فوق كي تريه بعض اللوحات. وافق بشوق.

عرضت عليه اللوحات، واستسلمت لعناقه تحاول جهدها التجاوب معه، لكنها أحست بالراحة عندما سمعت أصواتاً عدة، بينها صوت سايمون، مما دعا الممثل الشاب للتظاهر بالتفرج على اللوحات التي كانت تقول له إن والدها جمعها.

حين نزل الجميع، تأخرت مع الممثل قليلاً لأنها أرادت أن يعتقد سايمون أنهما يتمتعان بحديث حميم.. لكن قرارها لم يلبث أن اندثر إذ وجدت نفسها لن تستطيع الاستمرار في الادعاء.. فما كان منها إلا أن تسللت إلى غرفتها بعد دقائق قليلة.

ما إن أصبحت هناك حتى غيرت ملابسها وارتدت غلالة نوم رقيقة وضعت فوقها روباً أقل من شفاف... حين انفتح الباب وراءها ودخل، التفتت بسرعة لتقول له وأنفاسها عالقة في حلقها:

ـ ماذا تفعل هنا بالله عليك؟

فابتسم ابتسامة جمّدت الدم في عروقها:

ـ ألم تعرفي، أن روميو فقد اتزانه، فوضعته في تاكسي حتى يعود إلى بيته، ولئلا يصيبك الإحباط جئت عوضاً عنه.. ألم تتفقا على هذا؟

ـ أستميحك عذراً؟

ـ هذا ما اتفقتما عليه وأنتما تنزلان الدرج. وبما أنك مصممة على التخلي عن براءتك، فالأفضل أن تتخلي عنها لي.

ـ لقد توسلت إليك يا سايمون.

وتعلقت به، لكنه تأوه قائلاً:

ـ ليس هكذا، وليس هنا.

ـ لكنني أريدك، وأعدك ألا أزعجك، أو أقف في طريقك..

أحبك كثيراً، ولا أتوقع شيئاً آخر غير ما ستهبني إياه.

أمسكها بوحشية قائلاً:

ـ أنت لا تحبينني أيتها المعتوهة.. بل تريدينني. إنه الافتتان، غرام المراهقة، الرغبة، سميه ما شئت.. إنه الجنون. فأنت لا تعرفينني... عديني ألا تفكري في ما خططت له الليلة.

ـ لا.. أنت تثير رغبتي.

ـ أجل.. إنها غلطتي.. لقد علمت مذ وقع بصري عليك أنك المشاكل بأم عينها، ولو كان لديّ بعض الاتزان لتركت لندن مذاك الوقت. حسناً يا قطتي... سنتزوج. لكن على طريقتي.

كانت الإثارة قد بلغت منها الذروة لذا لم تجادل حين عرض إبقاء الأمر سراً حتى عن كريستين، كانت قد اعتقدت وقتذاك أنه يريد التهرب من الدعاية العلنية، تجنباً للصحافة وفضائحها.

كان مكتب تسجيل الزواج صغيراً وكئيباً، لكنها ارتدت فستاناً أبيض وحملت باقة من الزهور في يدها... وشعرت بأن ذبذبات سعادتها تضفي تألقاً على المكان. وبأن سايمون حالما يختلي بها لن يعود بعدها قادراً على تركها لحظة واحدة.

تقلبت لورا في فراشها تتألم من الذكرى. ما أكثر ما كانت ساذجة صغيرة وما أكثر ما كنت متهورة!

لكن ما أسعد ما كانت عليه أيضاً. فتلك الأيام القصيرة بين موافقته على الزواج منها وموعد الزواج كانت أسعد أيام حياتها، لم يكدرها إلا أمر واحد هو إصراره على عدم إخبار كريستين التي كانت لطيفة معها وربتها كابنتها، والتي ستتألم إن لم تخبرها.

لذلك وقبل أن تغادر المنزل إلى مكتب تسجيل الزواج، تركت رسالة صغيرة لها أخبرتها فيها عن أمر زواجها دون أن تأخذ إذناً من

سايمون. تعلم أنه سيغضب.. لكن ليس من اللائق ترك كريستين هكذا.

تم الزواج في وقت متأخر من اليوم، رافقها بعده سايمون إلى العشاء. كانت مثارة، فرحة، تغلي فرحاً وحباً وبهجة. لأنها أصبحت زوجة سايمون ولن تتألم بعد اليوم.

ثم.. وبعد خمس دقائق من وصولهما إلى شقته.. وصلت كريستين! حتى الآن.. لا تذكر لورا ما حدث دون أن تشعر بالغثيان. تنفست بحدة حتى تبعده عنها، ثم استرخت مخدرة الحس، تنظر إلى عقارب ساعتها.. الفجر سيبزغ وشيكاً، وسيكون عليها النهوض من الفراش للذهاب إلى العمل.

أحست بكراهية تجاه سايمون، فتمنت لو كان هو من مات لا كريستين، وليته لم يحيَ ولم يرغب فيها ليعقد ذلك الزواج المهزلة. لقد قرره لأنه شعر بالمسؤولية اتجاهها، لكن حياتها كانت ستكون أقل قساوة وهي تحاول التخلص منه الآن.

آنذاك.. أعلمته بما فعلت، قبل أن تدخل كريستين عليهما مباشرة. ولن تنسى ما حيت نظرة الاحتقار والسخرية التي رمقها بها. حذرتها تلك النظرة بأن شيئاً خاطئاً قد حدث، لكنها لم تفهم تماماً ما كان وراء شحوب زوجة أبيها البارد، التي وقفت تنقل نظرها من أحدهما إلى الآخر، خلعت كريستين قفازيها، ووضعتهما بحذر على الطاولة.. ثم ابتسمت.. ابتسامة عرفت لورا أنها زائفة كل الزيف.

- أنت لا تضيع فرصة عليك سايمون. لكنني أرى أنني وصلت في الوقت المناسب... اجلسي لورا.. ستحتاجين إلى ما يدعمك.

نظرت لورا إليه بائسة، فشاهدته يبتسم وهو يستند إلى الباب،

ثم شعرت بدمها يتدفق بارداً في عروقها عندما رأت قساوة وبرودة وجهه.

- نفذي ما قالت لك لورا.

كان هذا كل ما قاله، أو كل ما احتاج إلى قوله... جلست تحس بالتوتر الذي كان يتطاير شرراً بين زوجها وزوجة أبيها... مع ذلك لم تفهم.

الصمت الذي عقبه ملأ الغرفة بحجمه غير المرئي، ضاغطاً على أذنيها، فراحت تنقل البصر من كريستين إلى عيني سايمون الضيقتين. بعد لحظات قالت كريستين:

- لا أدري كيف أكون لبقة يا لورا. أتعرفين أنني وسايمون.. على علاقة؟ نحن على علاقة منذ سنوات.

ارتد الدم من عروقها عنيفاً تاركاً بشرتها دون لون... أدارت رأسها بتوسل أعمى إلى سايمون، الذي بقي صامتاً.. وقالت بصوت كاد يكون همساً:

- سايمون؟

- أصغي إليها لورا... لن يؤثر قولها في علاقتنا ما دمت، كما قلت مراراً تحبينني.

صدمتها وحشية كلماته ولهجته وكأنها ضربة موجعة. اعتقدت أنه سيغمى عليها.. لكن في مكان ما من أعماقها كانت جذوة قوة لم تقهر بعد، وهذه القوة أبقت رأسها شامخاً.

صاحت كريستين بغضب:

- بالله عليك سايمون! أنت تذل قاسي الفؤاد.. ألم تخبرها شيئاً عنا؟

- لم أجد أن لعلاقتنا تلك أهمية حتى أخبرها عنها.

- ربما لا أهمية لها عندك، لكنها ذات أهمية لي وللورا.. كان

عليك، على الأقل، أن تقول لي إنك لا تريد الاتصال بي قبل أن تتزوجها.

ـ هذا ممكن.

تضرَّج وجه كريستين في حين أن الغضب أشعل عينيها. أحست لورا بتورتها حتى خافت منها. ومع أن سايمون لم يحاول إنكار الواقع، إلا أنها أملت أن تكون كريستين كاذبة، لكن حركاتها نمت عن أن المرأة مريضة بحبه، رغبتها فيه جوع قادها إلى هذه المواجهة مع علمها أنها تضر بنفسها وبسمعتها وسمعته.

التفتت كريستين إلى لورا:

ـ هل أنت بخير؟ تبدين على وشك الإغماء.

تقدم سايمون بسرعة وانحنى من خلف الكرسي ليمسك بشعرها من الوراء ويشدها به:

ـ لن يغمى عليك.. صحيح يا لورا؟

آلمها وهو يشد شعرها حتى طفرت الدموع من عينيها وأبعدتها عن شفير الإغماء وقالت دون أن تفكر:

ـ لا... سايمون أرجوك أنت تؤلمني.

حتى كريستين بدا الخوف عليها وهي تصيح به:

ـ دعها وشأنها... بالله عليك سايمون.. ما هي إلا طفلة! فلماذا تزوجتها؟

ـ اندفاع «دونكيشوتي» إلى الفروسية والشهامة.

ترك شعرها وجلس قربها على الأريكة ممسكاً يدها:

ـ وربما استهوتني فكرة الزواج بفتاة طاهرة.

عبر ضباب من الرؤيا، سمعت لورا كريستين تصيح:

ـ أنت خنزير قذر يا سايمون. لعلك لا تسعى إلى المال... لأنها لا تملك شيئاً، كان والدها مفلساً حين تزوجته ومات مفلساً،

هي ستمتص كل مصادر مالك.

ـ مصادري المالية كافية... ونحن ننوي العيش باقتصاد. أليس كذلك حبيبتي؟ لن نخرج كثيراً.

نظرت إليه بذعر:

ـ سايمون.. لا تفعل هذا.

ـ لا أفعل ماذا؟

ظهرت بقعتان حمراوان على وجه كريستين:

ـ لا تلقي بالاً.. سايمون!

فرد بقساوة بلهجة آمرة:

ـ ظننتك لن تخرجي... أوصلي نفسك إلى الخارج.

أغمضت كريستين عينيها، ثم ارتدّت على عقبيها نحو الباب، قائلة بحنق:

ـ تمتعا الآن، وحين تسأم منها سايمون.. عد إليّ... فسيكون من دواعي سعادتي أن أرميك خارجاً.

ضحك ساخراً وهو يقف أمامها بتكبر، وهالة السحر والجمال وقوة الشخصية وثقة النفس ظاهرة عليه. انتفضت كريستين، ثم تراجعت وهي تحدق فيه، يأسرها اخضرار عينيه.

ولاحظت لورا أن ثقة زوجة أبيها بنفسها تبخرت تحت نظرته الساخرة، لأنها لعقت شفتيها باضطراب ثم ارتمت بين ذراعيه.

أرادت لورا أن تغمض عينيها لئلا ترى ذل كريستين أمامها.. لقد استغل حاجتها إليه وجعلها تستسلم..

ـ تباً لك (سمعتها تقول له) تباً لك سايمون!

وولّت هاربة من الغرفة صافقة الباب خلفها بحدة.

ـ سأتأكد من ألا يزعجنا أحد بعد الآن.

وكأنما وجودها لم يكن إلا إزعاج عابر، حين عاد لم تتحرك

لورا، بل جلست جامدة، مطأطئة الرأس. وسألها بقساوة:

ـ لماذا تركت لها رسالة؟

ـ كنت مدينة لها بهذا... يا لغبائي!

ـ نعم كنت غبية.. هل تطالبينني بتفسير؟

على الرغم من زوال وهمها فيه، كان ما يزال قادراً على إثارتها، فراحت نبضاتها تظهر في عنقها فأخفضت جفنيها حتى تخفي الرغبة المخجلة التي تقفز في داخلها، وسألها بصوت عميق:

ـ هل كرهتني؟

ـ أجل!

ـ كما كرهتني كريستين... ماذا حدث للحب الذي أقسمت عليه؟ لا تقولي إنه اندثر لعلمك بأن لي عشيقة. فالحب الحقيقي قادر على احتواء مثل هذه الأشياء.

ليته يفسر لها.. أو يقول لها على الأقل إنه ما عاد يحب كريستين... أو إنه لم يطارحها الغرام مؤخراً.

ـ سايمون.. لماذا لم تخبرني؟

ـ لي أسبابي.

ـ ما هي؟

فابتسم، ثم أخفض رأسه نحوها حتى أن أنفاسه حرقت عنقها:

ـ حبيبتي.. زوجتي العزيزة... لقد أقسمت على أن تحبينني وعلى أن تخلصي لي في السراء والضرّاء. فبرهني لي هذا الآن. وإلا.. أقسم، أني سأجعلك تندمين على اليوم الذي ولدت فيه.

تلاشى صوت المنطق، وأوشكت على أن تصبح عبدة لرغباتها.

لكنها ببطء، لملمت ما تبقى لديها من قوة، فسمرت نفسها بين ذراعيه، وأصمّت أذنيها عن صوته الأجش المثير.. كان أملها

الوحيد أن تبقى سلبية.. فهي تعلم أنه سيخضعها لرغباته إن قاومته.

وجه كريستين، وعذابها الذي ظهر حين رمت نفسها بين ذراعيه انطبع أمام عينيها المغمضتين... كان جسدها يشتعل من دنوّه منها كحمّى تعصف به، وأحست أنه إذا لم يفعل شيئاً لهذا، فستبقى في حالة إحباط ستتحول إلى عذاب... لكن وجه كريستين ما زال ينظر إليها ساخراً...

أحس سايمون ببرودها.. فارتدّ عنها قائلاً:

ـ أهذا هو الحب الذي أقسمت أن تمنحيني إياه بلا حدود؟ هل غيرت رأيك حبيبتي؟

فهمست:

ـ أنت تؤلمني.

فابتسم ورفع يده ليمسك عنقها، واشتدت أصابعه عليها لحظات ثم قال:

ـ أجيبي عن سؤالي لورا؟

ـ لماذا لم تخبرني؟

ـ ربما لأنني أردت اختبار حبك. إذا كنت تحبينني مقدار نصف ادعائك فلن تهتمي كم من عشيقة كانت لي.

فجأة علمت لماذا لم يهتم بشرح موقع كريستين في حياته، إنه واثق جداً من حبها له ولذلك لم يجد أن هذا الشرح ضروري. فاشتعل الغضب في داخلها، وتحول إلى لهيب جارف، جعل وجنتيها تحترقان وعيناها تسودّان وكأنهما بركتان عاصفتان.

قالت بصوت متصلب قاس:

ـ ربما لم يكن هذا حباً.. ربما ما هو إلا افتتان.

رفع حاجبيه ساخراً:

ـ بكل تأكيد... مع أن الافتتان لا يجب أن يمنعك من التمتع بليلة زفافك، يا حلوتي.

رفعت سخريته الغضب في نفسها. وصاحت به:

ـ ليتني لم ألتق بك!

ـ أنت لا تتمنين هذا أكثر مما أتمناه. والآن هل ستكونين متعقلة أم أخرج لأجد لي شريكة أخرى أقضي معها الليل؟

ـ متعقلة..؟ لا..؟ سأكون ملعونة لو تعقلت! أنت جريء وقح.. تتوقع أن يكون كل شيء كما كان من قبل...

هزها الشد السريع على مجرى تنفسها وجعلها تصمت... اشتعل غضب شرس على وجهه حتى ظنت أنه سيخنقها حقاً، ثم تلاشى وحل مكانه سأماً خالياً من الاهتمام. لا شك في أنه ينظر إلى كل امرأة مسكينة كانت له معها علاقة على هذا النحو. ابتلعت لعابها بصعوبة بعد أن ترك عنقها.

ـ ادّخري ملاحظاتك الطفولية التي لا تتجانس مع حبك المتقد.

وتحرك نحو الباب... فأحست بالبرودة، وهي تسأله:

ـ إلى أين.. إلى أين تذهب؟

ـ إلى كريستين.. ومن سواها؟

فهمست:

ـ لن تستقبلك.

التفت إليها ببطء ثم حدجها بنظراته من رأسها إلى أخمص قدميها.

ـ ألا تخالينها تستقبلني؟ أنت حقاً ساذجة بلهاء، يا حبيبتي... لك جسد امرأة مغرمة، وعقل طفلة، لأنها دون ريب ستستقبلني. لورا أعلميني متى نضجت.. حتى نتمكن ربما من المرح معاً.

وخرج...

بعد اثنتي عشرة ساعة من الانتظار حملت حقائبها واستقلت سيارة أجرة إلى محطة فكتوريا حيث قطعت تذكرة نحو الجنوب.

لقد كان على حق حين قال لها إنها كانت نصف حية. ربما بعد عشر سنوات قد تحس بالعرفان له لتصميمه على جرها إلى خارج ملاذها اللاواعي...

* * *

٨ ـ الرغبة القاتلة

تطلعت هيلين جادة إلى لورا ذلك المساء، ودفعت إليها فنجان قهوة عبر الطاولة قائلة:

ـ تبدين مختلفة.

ابتسمت لورا شاحبة:

ـ كانت الحياة كئيبة بالنسبة لي منذ سنتين. ويبدو أنه أصبح لي الآن مجموعتان من الذكريات، فالتي فقدتها أكثر حيوية من الأخيرة، وأنشط أحاسيساً.

كان واضحاً أن صديقتيها تحسان بفضول شديد لمعرفة ماضيها، ولكنَّ أياً منهما، لن تسأل سؤالاً واحداً.. ربما اتباعاً لتعليمات الأخصائية النفسية.

كانت القهوة لذيذة، ساخنة، قوية، رائحتها نفاذة.. نفخت لورا عليها قليلاً، ثم ارتشفت منها، وقالت بهدوء:

ـ أنا وسايمون متزوجان.

بدا الذهول على هيلين، لكن كايت أطرقت.. فسألتها لورا:

ـ ألم تدهشي؟

ـ لا.. في الواقع... لقد بدا متملكاً منذ البداية حتى اعتقدت أنكما مخطوبان.. على الأقل.

قالت هيلين بإلحاح:

ـ لكن حين خضعت للفحوصات كنت... سالمة، فما الذي حدث؟ يا الله... عذراً إن كان كلامي خال من اللباقة.. تجاهلي سؤالي.

تحركت كتفا لورا قليلاً، وردت:

ـ لا... لا بأس عليك، فبعد عقد الزواج مباشرة حدث بيننا سوء تفاهم هربت بعده. حين وصلت إلى هنا، وضعت كل الوثائق الهامة المتعلقة بحياتي في خزانة المصرف ثم تخفيت قليلاً، غطيت شعري بوشاح وارتديت نظارة شمسية.

ـ لهذا لم يستطع أحد اكتشاف مكانك.. والآن.. هل ستعودين معه إلى لندن؟

ـ لست أدري.. ما كان يجب أن نتزوج أصلاً. كنت مفتونة به.. والفتاة تكبر عادة على مثل هذه الأمور.

ـ وهو؟

الرد على سؤال كايت بسيط:

ـ إنه لم يحبني يوماً. ولم يتظاهر حتى، تزوجني لأنني هددته بأن أرتكب حماقة ما إذا لم يتزوجني.

هزت هيلين رأسها ساخرة:

ـ سمعت أشياء كثيرة في حياتي... لكن ما أسمعه الآن هو أكثر الأشياء تنافياً مع العقل! لا أستطيع تصور شيطان متعجرف مهين مثل سايمون باركلي يُبتز للقيام بما لا يريده!

فابتسمت لورا مجدداً:

ـ اوه.. لديه نقاط ضعف، ومنها النساء الجميلات. فلسبب ما، لقيت حظوة فيما تبقى له من ضمير.

ـ لا أظنه يحمل ضميراً.

ـ لقد غدا هذا من الماضي الآن. أشكره لأنه تحمل مشقة..

وساعدني على استعادة ذاكرتي.

وسيبقى الحال معها هكذا، ما دامت سترى سايمون أو تقرأ عنه. أصبحت القهوة دون طعم الآن في فمها وهي تتساءل كم من الوقت يحتاج المرء حتى يتغلب على حب ما. فسنتان من حياة جديدة لم تغير مشاعرها نحوه إلا إلى درجة أعمق. مع أنها لم تذكره حين رأته، إلا أن مشاعرها ازدادت عمقاً... ولو واجهت الوضع الماضي نفسه ثانية فلن تتصرف بالطريقة ذاتها، ذلك أنها كانت ساذجة، أنانية، فيها وقاحة الشباب، التي جعلتها تختار رجلها، دون أن تدع شيئاً يقف حائلاً في طريقها. فقط ما شاهدته، مما اعتبرته خيانة، هو ما دفعها إلى ذلك التصرف ليلة زفافهما، حين امتزجت خيانة مع كبرياء مجروحة. ولو أنه لاطفها.. وقدم لها بعض التفسيرات، لأذعنت ربما له.

هذا ما يؤلمها الآن. لكن هل سنتان من حياة جديدة عالقة في الزمن جعلتها تنضج حتى تفهم كم خذلته.

فيما بعد، حين كان يفتش عن طريقة ليخفف من الجرح الذي أصاب كرامتها، لتستطيع الإحساس بحبه.. سألته عن توضيح، لكن كبرياءه رفضتها بقساوة كما رفضته هي من قبل..

ـ هل أنت بخير؟

رفعت رأسها نحو هيلين، تخفي أفكارها السوداء بابتسامة:

ـ أجل.. أنا بخير.

ـ حسناً، ماذا تخططين الآن؟

ـ لا شيء.. لقد اتّخذت لنفسي حياة جديدة، فإذا رغب في طلاق أو فسخ زواج، فليكن له ما يريد.

ـ أليس هناك من فرصة...

حركت لورا شفتيها بسخرية، فصمتت هيلين عن رومانسيتها:

ـ بل لا أمل هناك أبداً.

بعدما سمعت الفتاتان هذا القول الحاسم، تبادلتا النظرات ثم ما عادتا خلال الأيام التالية إلى ذكر اسم سايمون ثانية.

ما إن حل صباح السبت حتى كانت لورا شاحبة مرهقة، وهذا ما لم تذكره لها أي من صديقتيها. لكن، وبينما كن يتناولن طعام الفطور سألتها هيلين:

ـ ماذا ستفعلين اليوم لورا؟

ـ سأنظف غرفتي، ثم سأقضي بعد الظهر في نادي التنس. فقد أجن إن لم أمارس بعض التمرينات.

قالت كايت:

ـ لماذا لا تركضين؟.. هل يلعب سايمون التنس؟

انتفضت لورا وسألت:

ـ لست أدري.. لماذا؟

صبت كايت بعض القهوة وردت ببرود:

ـ لأنه أوقف سيارته لتوه في الخارج.. وهو يبدو جهم الوجه.

قالت هيلين تهمس بعنف:

ـ لست مضطرة للذهاب معه.

احمرّ وجه لورا، وأحست للمرة الأولى منذ أيام بأنها حية، فقالت ببرود:

ـ لن يأكلني.

قبل سايمون القهوة التي قدمتها له كايت، وهنّأها على طيبتها، ثم انتظر حتى استرخت الفتيات الثلاث ليقول برقة:

ـ لدي رسالة من روزماري تدعوك فيها إلى قضاء النهار معها يا لورا.. فأنا ودان ذاهبان لصيد السمك.

حدقت لورا في القهوة وهي تشعر بعيون الجميع منصبة عليها..

وامتدت تلك اللحظات حتى ضحك سايمون قائلاً:

ـ أحضري حقيبتك، أيتها الفتاة البلهاء.

هكذا بكل بساطة... أدركت أنها على الرغم من توترها عندما تكون برفقته، إلا أنها تفضل أن تكون معه على أي شيء آخر.

بعد أن انطلقا بضعة أميال، قال سايمون:

ـ تبدين متعبة.. ألا تنامين جيداً؟

ـ أعطتني فيليستي بعض الحبوب المنوّمة، لكنني لا أحب تناولها.

وأدارت رأسها لتنظر إليه مباشرة بحدة..

ـ .. لا ما نمت جيداً.. وماذا عنك؟

فابتسم:

ـ لست استثناء... أما زلت تكرهينني؟

أحست بأن الكذب أجدى من كشف مشاعرها:

ـ اووه... أجل.

ران صمت قصير، قضى عليه بقوله:

ـ أعتقد أنك كشفت كل شيء.. فقد نظرت إلي هيلين وكأنني نوع من البكتيريا المزعجة، وكايت كان في صوتها بعض التحفظ.

ـ قلت لهما إننا متزوجان وإن الأمور سارت في مسار خاطىء. ولم أضف شيئاً.

ـ أتقصدين أنك تجنبت توجيه اللوم إلى أحد؟ لا أكاد أصدق هذا.

ـ آه.. لا تكن قذر التفكير هكذا! أنا لا ألوم أحداً. لا شأن لي إذا وجدت أني أهلاً لعطفهما الأمومي أو الأخوي.

غرقت في التفكير فلم تنتبه إلى الاتجاه الذي سلكه، لكن بعد خمس دقائق، أصبح شكها حقيقة، فاستدارت نحوه:

ـ أنت كاذب! فهذه طريق الشاطىء، شقيقتك لم تدعني!

ـ بل دعتك، ورفضت الدعوة عنك. فنحن بحاجة إلى أن نكون معاً بعض الوقت.

ذعرت فراحت تضربه بكلتي يديها إلى أن اضطر إلى التوقف، وعندئذ أمسك بها وهزّها حتى استسلمت للبكاء، وحذرّتها الخطوط البيضاء حول فمه من التمادي.

ـ لا تكوني حمقاء... لن أؤذيك، أيتها البلهاء. اهدئي، علينا أن نتكلم حتى نصل إلى حل ما بشأن مستقبلنا ولا مكان أفضل من منزل الشاطىء، لأنه لن يقاطعنا أحد فيه.

تريّث حتى خمدت شهقات بكائها، وقال بهدوء:

ـ صدقيني لورا، لا أريد أن أسبّب لك المزيد من التكدر أو الألم... لكنك تعلمين أنه لا يمكن ترك الأمور على ما هي عليه الآن.

هزت لورا رأسها، ومسحت دموعها، فأمسك بيدها، لف ذراعه الأخرى على كتفيها ليضمها قليلاً، وقال:

ـ أعتقد أنك تخافين أن تفقدي ذاكرتك من جديد... لكن فيليستي قالت إن هذا غير وارد.

جذبت نفسها منه، على الرغم من عذوبة عناقه:

ـ وهل كلمتها عني؟

ـ أجل.. إنها تعتقد أن صدمة وفاة والدك وحبك العنيف الأول، ممتزجاً مع تحرر من وهم، إضافة إلى رحلة جوية مرعبة، وضربة قوية على الرأس يوم وقوعك عن الدرج، مجموعة كافية لفقد الذاكرة، لكن من المستحيل أن تتكرر.

ابتسمت عندما سمعت كلماته الجافة هذه لكنها لم تلبث أن استرخت في مقعدها، فحرك السيارة من جديد، وسرعان ما كانا

يمران تحت ظل الأشجار باتجاه الجون الصغير القابع حالماً تحت السماء.

حين خرجت لورا من السيارة، تنفست عميقاً، تستقبل الإحساس بهمس الأمواج، وبمداعبة النسيم الدافىء الذي كان يرفع شعرها عن جانبي وجهها.

ـ أتودين السباحة؟

ـ لا.. ليس بعد.

ـ إذن تعالي نجلس على الشرفة.

نسيت الآن رعبها، وبدا سايمون مسترخياً.. بعد قليل قبلت زجاجة مرطبات مثلجة واستلقت على كرسي طويل متسائلة:

ـ كيف عرفت بمكاني سايمون؟

ـ أخبرتني روزماري.. كانت تعرف فقط أنني تزوجت، وأن الزواج لم ينجح. لذا لم يكن لديها فكرة عمن تكونين. لكنك أثرت اهتمامها، فذكرتك في إحدى رسائلها وتحدثت عن فقدانك الذاكرة... لم أصدق في البداية، وظننت أنك اخترت هذه الطريقة لإعادة الاتصال. وبما أنه كان لدي عطلة قررت أن أقضيها هنا، متظاهراً بالوقوع في أحابيل خطتك، ثم أتركك.

ـ وما الذي جعلك تغير رأيك هذا؟

ـ غيرته حين أدركت حقاً أنك فاقدة الذاكرة، عندما التقينا من جديد عند شاطىء الجزيرة على وجه التحديد نظرت إليّ بعينين فارغتين، فيهما حيرة، وقلق طفل مهدد بذكرى كابوس. وجدت أنني لن أستطيع أن أكره طفلاً لا ماضي له.

ـ ورغم ذلك لم تكن رقيقاً معي.

ـ لا.. كان عليّ إقناع نفسي بأنك حقاً فاقدة الذاكرة.. كنت أحاول اختبارك في البداية.

ـ يوم اصطحبتني بالطائرة؟

ـ صحيح.. كنت أعرف خوفك من الطيران. وقد أقنعتني يومذاك ردة فعلك أمام الطيران. كنت قلقة، لكنك غير خائفة، وقد حيّرني الإغماء وفوجئت بأنك حائرة أكثر مني. وعندها تأكدت من أنك حقاً فقدت ذاكرتك. لذلك قابلت الدكتورة مارلو فسألتها إذا كان تطفلي قد يؤذيك، فوافقت على مساعدتك وأعطتني بضع أفكار.

ـ كأن تغازلني مثلاً؟

ابتسم، دون مرح:

ـ قالت إن إعادة أحداث الماضي قد تحررك، وبما أن مغازلتك لم تنجح، قررت استخدام المجلة التي كانت مقتنعة بأن العقدة كامنة فيها.

ـ وقد نجحت... لماذا لم تذهب وتتركني وشأني سايمون؟ لكان هذا أرحم.

ـ سألتني عن هذا من قبل.. وأجبتك أن ليس في قلبي رحمة. لقد كنت نصف إنسان. إن التجارب، والذكريات، مهما كانت مؤلمة وقاسية، تعتبر نعمة من السماء... تذكري ما كان بيننا لورا، تذكري أوقاتنا الطيبة..

فقالت مقطوعة الأنفاس:

ـ إنها ذكريات مرّة.

أجبرتها يده غير الرحيمة على الاستدارة إليه:

ـ لقد وقعت في حبي مرتين لورا... فلا تنكري لأنها الحقيقة. لكنك لم تتعلمي درسك، ففي المرة الأولى منحتني فضائل ما كنت أملكها.. وغطيت تجاوبك الجسدي معي بسلسلة من عواطف زائفة سميتها حباً. لقد تصرفت بطريقة لا أخلاق فيها، أظهرت رغبة

حيوانية. أما في هذه المرة فتصرفت بطريقة أفضل قليلاً. فرفضتني. لأنك أحسست بأن هناك شيئاً خاطئاً... ربما في المرات القادمة قد تجدين الأعذار التي ترغبين فيها.. لكن لن يكون ذلك معي سأتدبر أمر طلاقنا حالما أعود إلى لندن.

ـ طلاق؟ ألن يكون فسخ الزواج أسهل؟

ـ أجل... لقد عرفت بالضبط ما أريد.. لقد سببت لي مشاكل كافية. وثمة طريقة وحيدة للتعويض عن هذا، وهي أن تعطيني ما حرمتني منه منذ أكثر من سنتين... في ذلك الوقت ظننت أن هذا يساوي قيمة حريتي منك... فلتر إذا كنت محقاً.

لقد آلمها من قبل... قتل حبها له، لكنها لم تحس قط بمثل هذا الألم الذي تحس به الآن، إنها تشعر وكأن سكيناً حاد النصال يمزق قلبها.. فمطلبه البارد هذا ليس إلا انتهاكاً وحشياً لكيانها وشخصيتها.. من قبل دفع هذا العذاب عقلها الباطني إلى محوه من حياتها وكأن ذكراه سرطان سيقتلها.

صاحت به محاولة التحرر من قبضته:

ـ لا!

اشتدت أصابعه عليها حتى أحست بالدوار.. وقال:

ـ ولمَ لا؟ تعرفين أنك تريدينني. والله يعلم أنني أردتك وما زلت أريدك.. قد تحررنا علاقة حميمة.

ـ إذا.. إذا.. امتلكتني الآن...

صمتت، تفتش عن الكلمات لتفسر ما تعني، فسألها:

ـ ماذا؟

ـ لا أظن أنني سأعود كما كنت أبداً.

تراخت قبضته عن عنقها.. وتمتم:

ـ لطالما جعلت من نفسك ضحية درامية... وربما لهذا أروق

لك.

تمسكت بصلابتها تستدعي كل مقاومة لديها لتحارب الرغبة التي تكتسح نفسها:

ـ بل أعني ما أقول.

ـ هراء حبيبتي... أنت تؤمنين بسخافات كهذه لأنك ما زلت عذراء.. فاسترخي.. لن أؤذيك.

لم تقاومه... لكن عينيها أخفتا تعبيراً امتزج فيه الألم مع الرغبة. راحت يداه تستكشفان بمداعبات خفيفة.. فتذكرت أنه تصرف معها هكذا ليلة زفافهما وأوصلها يومذاك إلى قمة الاستسلام.

حين ابتعد عنها قليلاً.. قالت له ببرود:

ـ والآن.. هل ستتركني؟

لا بد أنه تذكر كذلك إذ ابتسم قائلاً:

ـ لا.. فيومذاك كدت أموت إحباطاً.. ولن أعيد الكرة ثانية، أحضنيني لورا.. تظاهري بأنك تحبينني.

تتظاهر...! وعلقت أنفاسها في حنجرتها، حتى كادت تعجز عن التفكير السوي.. ولم تدرِ إلا وهي تتأوه مستسلمة، عاقدة ذراعيها حول عنقه، ضائعة فيه ومعه كما رغبت منذ سنتين.

حين ابتعد عنها، أحست أن نصفها قد ابتعد معه.. كانت طيور البحر تصيح، تنادي بصوت رتيب لاستعادة فعل حب تركها أكثر جوعاً من قبل.. وتساقطت أشعة الشمس عليهما من خلال أوراق الأشجار التي بدت وكأنها قطع نقود ذهبية.

نظرت لورا إلى الرجل النائم قربها، إنها تحبه حباً لن يموت أبداً، وها هي تعي أخيراً أن لا شيء بقي لها في هذه الحياة. إلا.. إذا! وامتدت يدها إلى بطنها.. ربما تحدث المعجزة. ربما تظهر

الآن معجزة الحمل الخالدة.. وربما سيكون لديها سلوى صغيرة في سنواتها السوداء القادمة.

ـ لم نفكر في هذا.. أليس كذلك؟

انتفضت.. إنه دقيق الملاحظة كالعادة. لقد عرف ماذا وراء حركتها، وراح يراقبها بتعابير غير طبيعية. فقالت بخشونة:

ـ إمكانية الحمل ضعيفة.

ـ ومع ذلك يجب أن نقرر منذ الآن مسؤولية من سيكون.

ـ لست أدري ما تعني.

ـ كم من الوقت سيمضي حتى تعرفي ما إذا كنت حاملاً أم لا؟

ـ ليس قبل شهر، لماذا؟

ـ لأنني لن أسمح بأن يتربى طفلي بعيداً عن إشرافي.

أحست لورا بالحرارة تغزوها تحت نظرته المتملكة، واكتشفت أن الاحمرار وهما في هذا الوضع يكون أكثر ظهوراً من العادة.

ـ حسناً.. هذا سيعطيني شهراً لأركز نفسي معك، أتظنينه وقتاً كافياً؟

كانت على وشك البكاء إحباطاً. لكنها سيطرت على أعصابها وعضلات وجهها. فآخر ما ترغب فيه أن يقرأ ما في قلبها كما يقرأ ما في ذهنها.

ـ عليك ارتداء ملابسك لتذهب إلى منزلك لتوضيب حقيبة ملابس لك كما عليك أن تطلبي إجازة من رب عملك منذ الآن.

جلست لورا مصدومة فزعة:

ـ لا أستطيع! ليس هكذا... كان جورج طيباً معي! لا أستطيع التخلي عنه هكذا!

ـ سبق أن تخليت عني.. وكنت زوجتي لا موظفة عندي. حسبتك دون مبادىء، لكنني عرفت الآن أن مبادءك لا تختلف عن

مبادىء سائر الناس.

ـ تعني الناس أمثالك.

ابتعدت عنه وهي تشعر بالمرارة ثم راحت تلتقط ملابسها وتابعت بهدوء:

ـ أنا لن أذهب معك سايمون... فلا أخالني قادرة على تحمل المزيد من عقابك.

ـ أهكذا كان الأمر؟ لكنك لم تكرهي ما فعلنا يا حبيبتي! بل كانت ردة فعلك عنيفة.

جعلتها لهجته الباردة الساخرة ترتجف.. فردة الفعل الجسدية أهون من لجة اليأس التي فتحت فاها تحت قدميها. ودون أن تتحرك، لإحساسها برغبته في أذيتها. قالت:

ـ ربما أنت على حق. أنا لا أنكر أبداً أنني رغبت فيك.. لكنني لم أكن الآن أشير إلى هذا.

ـ إلى ماذا إذن؟

ـ إلى سخريتك المهينة الدائمة.

طفقت أصابعه تتحرك على كتفيها مداعباً حتى اقشعر جسدها.. لم تكن تؤلمها قساوته كما تؤلمها رقته التي يعرف كيف يستخدمها.

ـ ألست خائفة مني؟

ـ ليس منك بمقدار...

وعضت على شفتها.. فأدارها برقة لتواجهه.. كان يبتسم دون أي أثر للوحشية في تعابيره التي تخيفها، بل كان في نظرته حنان وشفقة.. وقال لها بهدوء:

ـ بمقدار خوفك من نفسك... أعرف هذا صدقيني. كنت خائفة مني منذ سنتين، ولم أشأ تحطيم سعادتك، لكن لم يكن

لديك أحد سواي، حتى كريستين لم تكن تهتم.. ولم يكن لك أصدقاء ليساعدوك. واستطعت رؤيتك تشقين طريقاً واسعاً نحو الجحيم، تغويك استجابات جسدك وحاجتك إلى الحب.

ـ لذا تزوجتني؟!

ـ لذا تزوجتك.

شدها سايمون بلطف إلى صدره، فألقت رأسها على كتفه شاعرة باشتعال الرغبة من جديد، لقد اتخذ جسده وسيلة إقناع، لينتزع منها الرد الذي زعزع أفكارها السابقة كلها..

لكنها الآن تلعن القدر الذي دفعهما إلى الالتقاء ثانية بعد سنتين.

مضت عليها سنتان لم تفكر فيه البتة بل لم تتذكر اسمه حتى، لكنه كان دائماً معها، جزءاً من كيانها ككل خلية في جسدها، لقد تعلمت أن تحبه، أن ترضى بكل أخطائه ونواقصه.

حب «أمير الأحلام» المجنون انتهى، وحلّ مكانه ألم ورغبة ومشاعر أعمق على أساس أقوى وأصلب.. ذلك الحب الأول كان عناداً وأنانية، كما هو الحب الأول دائماً. إلا أن ما تشعر به الآن هو شيء راسخ، لذا يؤذيها مجرد التفكير في أنه سيلعب في حياتها دوراً ليس إلا.

ـ لا تبكي لورا.. فالله يعرف أن الدموع لا تحل شيئاً. وأنا لا أستحقها.

ـ أنا لا أبكيك... بل أبكي نفسي.

ـ تبكين تلك الفتاة الصغيرة البلهاء؟ لمَ البكاء عليها؟ لقد تمتعت بحياتها، كانت صغيرة جداً لا تعرف الخطر الذي توقع نفسها فيه، كانت بريئة بريئة بحيث لم تتأثر بأي خطر، اعلمي أنه حتى لولا ظهور كريستين في تلك اللحظة بالذات، لما دام الأمر

واستمر. مع الأيام كنت ستكسبين مني خبرة وحذراً.

كانت كلماته ضربة موجعة لقلبها، فسألته:

ـ كم من الوقت كنت ستمهلنا وقتذاك؟

ـ سنتين أو ثلاثة. فلم يكن في نيتي تركك دون أن تتعلمي بعض التمييز.

ـ أنت.. أنت تظهر كريستين وأصدقاءها، كأسماك القرش والذئاب.

ـ يا حبيبتي البريئة إنهم كذلك. خليط من الأثرياء والمتطفلين، والمنحطين. كان لكريستين نفسها سمعة تثير الاستغراب.

ـ لكن هذا لم يكن يزعجك.

ـ كانت متوفرة لي، وجميلة، ومنحطة كأصدقائها. ولم أدعِ يوماً أنني أفضل منهم.

نظر إليها نظرة عميقة ثم أردف:

ـ كانت ستفقد اهتمامها بك مع الوقت، وما إن يعرف الجميع أنك ما عدت تهمينها حتى يسعوا إليك. وما كنت لتكوني محظوظة في الحفاظ على براءتك أكثر من أسابيع معدودة.

ـ كان سيكون لي رأي بهذا الصدد!

ضحك ثم قست عيناه:

ـ يا حلوتي... بعض زملائها ما كان ليتورع لحظة عن اغتصابك... كما أن هناك وسائل أخرى لإخضاعك... المسكرات والمخدرات. وبعدها الابتزاز لتأمين وجودك حين يريدون.

ـ أنا.. لا.. أصدقك!

ـ لا..؟ حسناً إنك حرة في رأيك. لكن أحد الأسباب التي دفعتني للزواج منك، هو أنني رأيت نوع الانحطاط الذي كان

ينتظرك.

ـ هكذا إذن.. وأعتقد أن عليّ أن أكون شاكرة لك.

ـ ولكن هناك أسباباً أخرى دعتني إلى الزواج منك. فأنت جميلة وتعيشين لتنفيذ وعودك، عكس بعض النساء.

ـ وماذا عن كريستين؟

أطلت في عمق عينيه نظرة قبيحة.

ـ اووه.. كانت خبيرة.. صدقيني. وأمامك طريق طويل طويل قبل أن تصلي إلى مستواها.

دفعت كتفيه بما أوتيت من قوة، كارهة نفسها لتجاوب عاطفتها معه، لكنه بابتسامة خالية من الشفقة تمسك بها وشدها دون أن يظهر لطفاً أو رقة هذه المرة. فهمست وقد ضاقت بها أنفاسها:

ـ سايمون.. أرجوك...

ـ أتتوسلين لورا؟ أحب سماع توسلاتك، فهي ترضي غروري.

ـ هل ذهبت حقاً إليها ليلة عرسنا؟

ـ وهل هذا مهم؟

هزت رأسها إيجاباً، لكنه تابع ببطء:

ـ لا.. لا يهم.. ما يهم هو أنك اعتقدت أنني ذهبت. ولو كنت أحتاج إلى دليل يثبت أن حبك ليس إلا هوى مراهقة لكان ظنك ذاك خير دليل. يا إلهي كم من الغضب تملكني. كنت أستلقي ليال كاملة أخطط وأعدّ خطط الانتقام. وكان عليّ أن أعرف أنك قد ألقيت نفسك في الجحيم كذلك.

ـ لكنك عدت إليها.

ـ كانت تنتظر، وكنت أنت قد أوضحت أنك ما عدت تهتمين. وبما أنني لم أكن أستسيغ الاغتصاب فقد سعيت إليها لأنني بحاجة إلى امرأة تلك الليلة.

جعل الرعب المجنون وجهها أبيض كالأموات.. وأجبرت الكلمات على أن تخرج من فمها الذي أطبقه القرف والاشمئزاز:

ـ لقد استغليتها! كنت تعرف شعورها نحوك! حتى أنا فهمت أنها مسلوبة اللب. وما كانت لتفتعل أو تشارك بهكذا فضيحة لو لم تكن دون إرادة أمامك. أنت شيطان رجيم!

رد عليها بصوت ضجر:

ـ هذه شروطها.. كانت عاهرة ذات مستوى رفيع لورا، ولم تكن تريد مني إلا إشباعاً جسدياً، وهو ما كانت تحصل عليه.

توتر كل عضلة وكل عصب، في جسد لورا.. لكن قبل أن تتحرك أمسك بأصابعه القاسية ذقنها وأجبر وجهها على الاقتراب من وجهه... فاختبرت موجات متتالية من الغضب الجارف، والقرف، الممزوجين بالرغبة. وقاومته.. قاومت لتتحرر منه، ومن مشاعرها الجسدية التي يأسرها بها.. لكنه ضحك وهو يخضعها ويؤذيها، حتى استرخت.. ثم احتضنها بحنان وعذوبة دون أن يسمح لها إلا بالإذعان له.

* * *

٩ ـ العطاء الأخير

كانت الشمس تميل نحو الأفق، حين أيقظها سايمون. ودون أن تفتح لورا عينيها تمتمت باسمه:

ـ هيا.. استيقظي، فإذا لم أنقلك إلى البيت الآن فستأتي الممرضتان لرؤية ما حل بنعجتهما الصغيرة.

ـ لا أظنهما تفعلان ذلك.

ـ ألا تظنين؟ فلنذهب إذن للسباحة.

رفعت جفنيها ببطء:

ـ الآن؟

ـ ولمَ لا؟ فأنت بحاجة لما يوقظك، فإذا أرجعتك وأنت على هذه الحال فستعرف حارستاك فوراً كيف أمضينا وقتنا.

ـ ألن يعجبك هذا؟

فضحك:

ـ يا حبيبة القلب.. لقد صنفتاني من النظرة الأولى واعتبرتاني زير نساء. وهذا لا يقلقني أبداً. لكن قد تصابين أنت بالإحراج.

فتأوهت مستديرة لتخفي وجهها في صدره:

ـ تعرف الكثير عني.

ـ لئلا تكذبي مجدداً عليّ.

فتمتمت بعد صمت:

ـ لكنني لم.. لم أكذب.

أبعد سايمون وجهها عن دفء صدره كي يجبرها على النظر إليه.

ـ بلى لورا.. كذبت علي.. قلت لي إنك أحببتني.. لكنني رفضت إخفاء الرغبة البحتة في عباءة العاطفة الصحيحة.. اتركي الحب للرومانسيين المشوشي التفكير. وعيشي هذه اللحظات بانتظار أن ينتهي كل شيء وأنت لا تشعرين بالألم الذي قد يدفعك إلى الاختباء ثانية.

لذعت كلماته قلبها كحد السوط، فقالت عبر شفتين شحبتا ألماً:

ـ وأنت بم ستشعر؟ أم ما عاد يؤثر فيك أي شيء في هذه الدنيا؟

ـ أوه... قد أتعلم. لكن ليس عن طريق التوسل التافه إلى قلبي أو إلى نفسيتي الطيبة أو حبي... زواجنا كان جنوناً سوف نحاول شفاء جراح بعضنا بعضاً قبل أن أرحل، فأنت ناضجة الآن ويمكنك رعاية نفسك.

ـ أنت أكثر الرجال تعجرفاً... أريد الذهاب الآن إلى المنزل.

ـ لماذا؟

ـ لأنني لا أريد البقاء معك. أنت رجل لا حدود عندك، مستبد، قاس، ولست ذكياً كما تظن... وأعتقد أنني أمقتك.

تقدم ليقف أمامها:

ـ ها هي لورا التي عرفتها.

وأحنى رأسه يقبل رأسها، فطفرت الدموع من عينيها وتغلّب عليها الألم لكنها علمت أنها لن تستطيع الاستسلام له بعد الآن لأنها إذا عاشت معه زوجة بضعة أسابيع فقط فسيقتلها الفراق.

ـ هل تريدين العودة حقاً؟

ـ أجل.. أرجوك.

دب الأمل في قلبها لحظات، لكنه مات قبل أن يبصر النور.. فما يحسه نحوها ليس إلا رغبة لا حباً معطاء، بعيداً عن الأنانية، وحده الغبي لا يدرك أنه يعتبر حاجته إليها ضعفاً يجب التحرر منه.

وعادا إلى الشقة بصمت.. حين وصلا إلى هناك قالت لورا بهدوء:

ـ لن أذهب لأعيش معك سايمون.

ـ أعدت النظر بالأمر؟

ـ أجل...

ـ لماذا؟

ردت ببرود شديد:

ـ لا أعتقد أنني أحتاج إلى أسابيع قليلة كي أنساك.

ساد صمت قبل أن يقول بصوت ملؤه الشر:

ـ كذابة! سأقبلك الآن، وستتجاوبين كما تتجاوبين دائماً.. وبعد لحظات ستفعلين ما أطلبه منك... فحاولي المقاومة يا زوجتي الراغبة.

تطلب منها جهد كبير حتى تهز رأسها نفياً.. فسألها:

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ إن ما تقوله لا يكفي. فأنا لا أريد أسبوعين منظمين معك يتبعهما عشاء وداعي، فلست عرضة للبيع.

ـ بلى.. فلك ثمن، لكنه ثمن مرتفع يفوق ثمن الأخريات. اسمعي بإمكاني إجبارك على المجيء معي.

جعلتها الوحشية في صوته ترتجف.. فردت عليه:

ـ أعرف هذا... لكنك ستسأم بسرعة لأنك ستضطر دائماً إلى انتزاع التجاوب مني انتزاعاً. فأنت لست معتاداً على هذا، لأن

معظم النساء يجدنك لا تقاوم.

ـ ماذا تريدين مني إذن؟

فابتسمت:

ـ أتصدق لو قلت لك، لست أدري.

قال ببرود:

ـ أجل سأصدقك، حسناً هكذا هو الأمر إذن.. سأراك فيما بعد.

حين اختفت السيارة.. دخلت لورا الشقة لتتهاوى منهارة فوق الأريكة، والدموع تنهمر من بين أصابعها.

كانت ما تزال على هذه الحال حين عادت كايت، فسألتها بحيرة:

ـ كان لقاء مشحوناً..

ـ اوه.. بكل تأكيد!

ـ قولي أن أصمت إذا أردتِ.

ـ لا.. لا بأس بالأمر. أتعلمين.. أسوأ ما في الحياة أن تحصلي على ما تريدين ثم تكتشفين أنه ليس ما تريدين أبداً. وإذا حيَّرك قولي، فأنا آسفة لأنه الحقيقة.

وضعت كايت فنجاني قهوة على الطاولة وقالت:

ـ معظم الأمور الجادة تحيّر المرء.. أعتقد أنك لا تودين الخوض في الموضوع.

ـ لا أدري ماذا أتكلم.

ثمة أحداث كثيرة جرت، لم يستطع عقلها استيعابها... وتحتاج إلى فترة هدوء تساعدها على وضع الأمور في نصابها الصحيح...

ـ يريد مني أن أذهب للعيش معه.

البحر...

لكن لورا استمرت في خسارة وزنها... ومع ذلك رفضت الإذعان إلى عاطفتها التي كانت تمزق قلبها... لن تقبل أن تصبح واحدة من عشيقاته، يستخدمها ثم يهجرها، لكن الشوق في داخلها طفق ينمو مع الجوع والحاجة. وبقيت على هذه الحال حتى سارت يوماً ظهراً في شوارع المدينة حيث التقت وجهاً لوجه بدان دالتون الذي توقف ليحييها، وعيناه القاسيتان مستقرتان على وجهها باهتمام:

- أكنت مريضة؟

نظرت إليه بحيرة:

- أنا.. الأمر...

وصمتت تحس بغبائها. فقال بهدوء:

- تعالي معي.

أمسك بذراعها ليقودها إلى مطعم مجاور.

- وكأنك بحاجة ماسة إلى الطعام. لقد فقدت نصف وزنك منذ أن رأيتك في المرة الأخيرة.

وأجلسها على كرسي ثم طلب ما يريد من طعام.. بعد لحظات وجدت أمامها كوباً ضخماً من عصير الفريز، تحدق فيه مذهولة.

- لا أستطيع شرب هذا.. لن أتمكن من العودة إلى العمل بعد احتسائه.

- ألم تتناولي الفطور؟ هيا اشربيه، ثم أخبريني لماذا تحاولين قتل نفسك جوعاً؟.

- هذا غير صحيح.

- بل صحيح.. فأنت تعسة حتى فقدت الشهية للطعام. اسمعي، أنا أكره حشر أنفي في شؤون الناس، ومع ذلك أجد نفسي

مضطراً إلى فعل شيء بشأنك وبشأن شقيق زوجتي... روزماري قلقة عليكما.

- آسفة، أرى أنك رجل تكره أن تبكي إحداهن على كتفك، لكن إذا استمريت في الحديث عن سايمون.. فستتحمل النتيجة.

- أتساءل ما إذا كانت سمعتي ستتحمل هذا أيضاً... لكنك لن تبكي.. أخبريني.. أتحبين ذلك المتعجرف المتكبر العابث؟

- أنت جريء جداً! كعب الطنجرة ينادي إبريق القهوة يا أسود!

فابتسم، لكنه لم يلن بل سألها بصوت فيه تحذير:

- لورا!

أعمتها الدموع، فامتخطت بالمنديل. وتخلت عن جو الاعتداد بالنفس.. وقالت بصوت متحشرج:

- طب.. طبعاً أحبه...! ولولا حبي له لقبلت عرضه، دون.. دون.. أن أهتم!

- ما هو عرضه؟

- بضعة أسابيع نقضيها معاً حتى نتحرر من حبنا وشوقنا إلى بعضنا بعضاً. ثم يأتي بعدها الطلاق... كدت أقتله على اقتراحه هذا!

- هذا الشعور مشترك بيننا.

رفعت بصرها إليه:

- ماذا تعني؟

- تناول ليلة أمس العشاء معنا.. حين أوت روزماري إلى الفراش باكراً ذكر أمامي سايمون في حديث عابر أنه حين يراك في المرة القادمة سيريك من هو «الريس».

- وهل كان غاضباً؟

- أجل.. وكأن عفريتاً أسود يركبه. كان غير قادر على الكتابة،

أو النوم، أو الأكل أيضاً.. وحين سألته عن السبب طلب مني بطريقة خالية من الأدب أن أخرس. فهل ستحذين حذوه لورا؟

ردت وهي حائرة في أمرها:

ـ يجب أن تعترف أنك غريب الأطوار بعض الشيء الآن.

ـ سخرية الموقف تصدمني كذلك. إن ما أفعله الآن ليس أسلوبي، لكنني مرتبط بسايمون وأنا أحبه.

ـ وروزماري قلقة!

فابتسم:

ـ بالضبط.. والآن أتودين إخباري ما حدث بينكما بالضبط؟

لم تصدق ما فعلته فلم تجد نفسها إلا وهي تقص عليه ما حدث فساعدها بوحها هذا على تنفيس الاحتقان الذي كان في داخلها. تحدثت بسرعة ووعي، دون الميل إلى الدراما، لكن صوتها كان يكشف عواطفها.. وبينما كانت تتكلم، أحست بأن بعض الحمل الثقيل الذي على عاتقها بدأ يخف. أنهت حديثها مع احتساء القهوة بعد الغداء.

بقي دان دقائق يحدق في القهوة مقطباً، ثم رفع رأسه.

ـ لقد مرت بك أوقات عصيبة.. فماذا ستفعلين الآن؟

ـ سأذهب إليه.. وأنا آمل ألا يملني بسرعة، أتظن أن هذا ما يجب أن أفعل؟

ـ لا أنصحك بهذا أبداً.. لكنني أوافق على أن هذا هو الحل الوحيد السليم. لكن هل ترغبين حقاً في السعي إليه؟

ـ أجل.. لقد جعلني الحديث معك أدرك أن لا شيء أمامي غير هذا... ربما سأصبح تعسة معه.. لكن الحياة بدونه كالسير في الصحراء.

نظر دان إلى ساعته:

ـ حسناً.. سأبقى في المدينة بعد الظهر كله.. سأمر بك لأصطحبك من العمل.

ـ ماذا؟ لكـ.. لكـن.. لا يمكـن.. علـى جـورج أن يحضـر موظفة أخرى. لا.. لا أستطيع..

ـ لورا.. أتريدين أن تستمر الأمور هكذا طويلاً؟ إن كل يوم يمر يصعّب عليكما الرجوع، بل يجعل من الصعب على أي منكما أن يخطو الخطوة الأولى.

همست:

ـ لا.. لا أريد.

ـ حسن إذن.

ـ إني لأشفق على روزماري، لأن لها أخاً كسايمون وزوج مثلك. بتُّ الآن لا أستغرب انطواءها على ذاتها.

فابتسم لها:

ـ أهلاً بك في العائلة.

في السادسة والنصف من ذلك المساء، أنزلها عند أعلى التلة الموصلة إلى الشاطىء... وسألها:

ـ أتريدين حقاً ألا أوصلك إلى البيت؟

ـ لا.. فإذا وجدني أصل وحيدة فلن يتمكن من إعادتي.. تمنى لي حظاً طيباً دان.

ـ لا أظنك في الوقت الحاضر تحتاجين إلى الحظ... هيا اذهبي!

عندما وصلت إلى أسفل التلة، كانت حقيبتها تزن طناً. وكانت متوترة حتى أن حركة بعض الحشرات كادت تجعلها تصرخ.

علمت قبل أن يقابل نداءها الصمت أن البيت فارغ. ترددت لحظة، ثم هزت كتفيها وولجت الباب ثم اجتازت غرفة الجلوس

وصولاً إلى غرفة النوم.

وهناك، أخرجت ملابسها من حقيبتها، وشرعت تضعها في الأدراج الفارغة. جعلها اندفاع متهور تحضر غلالة نوم شفافة مغرية، علقتها في الخزانة وهي تعضّ على شفتها.

أحست كما تحس عادة في نهاية كل يوم صيفي أنها عرقة، لكنها اليوم لم تشأ الاستحمام لأن البحر اليوم أوماً إليها، فمدت يدها إلى البيكيني لكنها عادت فتركته ثم راحت تخلع ثيابها وارتدت مبذلاً لا ثياب تحته. كانت المياه دافئة. تداعب جسدها بنعومة ولذة، بقيت فيها مدة طويلة، تسبح خلف السد الصخري الطبيعي حتى شقت طريقها أخيراً فوق الرمال.

بعد مضي الوقت، بدأ القلق يساورها.. أين سايمون؟ أكدت لها نظرة واحدة إلى الكاراج أنه ليس هنا، فالسيارة ليست مركونة في الكاراج.

عادت إلى البيت تشعر بالجوع، فسارعت إلى فتح البرّاد الذي وجدت فيه لحماً مطبوخاً بارداً، وسلطة.. لم تدرك أن هذه الوجبة الوحيدة الكاملة التي تناولتها منذ أسابيع.

عندما حل منتصف الليل، كانت قد نامت مرتين، استيقظت في كل منها منتفضة، مما أدى إلى تصلب رقبتها، فتخلت عن غرفة الجلوس ودخلت غرفة النوم حيث ارتدت غلالة نومها واندست في الفراش مستسلمة إلى كرى عميق. حين استيقظت كان النهار مشرقاً، وسايمون يجلس على حافة السرير، يحتسي القهوة، ويحدق إلى الأرض وكأنه يرغب في أن يأمرها بأن تنشق وتبتلعه.

رفع رأسه نحوها ووجهه يخلو من أي تعبير:

ـ صباح الخير.

ـ صباح الخير.

ـ أعددت لك القهوة.

ـ شكراً لك.

قليل من هذا التكلف الرسمي بعد وتصب القهوة فوق رأسه.. مدت يدها فتناولت الكوب عن الطاولة قرب السرير، ثم اختلست نظرة سريعة إلى الوسادة القريبة منها فإذا عليها آثار النوم. فتضرّج وجهها وارتجفت يديها، لكنها سارعت إلى إخفاء اضطرابها باحتساء القهوة.

يبدو، أن سايمون لم يشأ أخذ ما كانت تعرضه عليه، وإلا لأوقظها حين وصل.. أين يتركها هذا الآن؟.. سيتركها واستسلامها مرمي في وجهها.. هكذا!

ـ من أحضرك؟

فابتسمت ساخرة:

ـ دان.

فضحك:

ـ كان يجب أن أعرف... ثم عاد إلى منزله وغير ملابسه وحمل زوجته وولديه إلى حفلة شواء عند آل باركر.

ـ أكنت هناك؟

ـ أجل.. كان خلال الأمسية يتصرف بشكل رائع.

ـ أنتما متشابهان... مسكينة روزماري!

ـ هل أقنعك بالمجيء إلى هنا؟

ردت بهدوء لا تشعر به البتة:

ـ لا... أوصلني.. فقط.

ـ عظيم يجب ألا يحشر أحد أنفه في شؤوننا الخاصة. ولماذا جئت لورا؟ أريد الحقيقة كاملة.

ـ لن تصدق.

ـ حاولي.

تنهدت:

ـ لأنني أريد أن أكون معك. سئمت الخصام، والمقاومة، فهذا كل ما كنت أفعله منذ ليلة عرسنا.. أعتقد أنني أحبك، وهذا ما انتزع كل كرامة لي.

ـ وما الذي جعلك تغيرين رأيك؟

ـ التعاسة.

تنافرت الكلمة مع دفء الجو، كان ثقلها الصريح غريباً أمام إشراقة الصباح.

ـ هل تتوقعين أن تعيشي معي سعيدة إلى الأبد؟

يا إلهي.. إنه بالفعل يتمتع بإيلامها! ردت بخشونة:

ـ لا.. لا.. لقد تلقنت الدرس الذي علمتني إياه جيداً.. ما الحب إلا نزوة، تمتع بها ما دمت قادراً.. الخ.. الخ. لن أتوسل إليك حتى تعطيني أكثر مما تريد. قلت لي إن علي أن أزحف.. حسناً سايمون أنا زاحفة الآن.

ـ الكلمات تخرج منك بسهولة.

ازداد وجهها شحوباً، ثم ضاع في تدفق الدم إلى عروقها بعد أن أدركت ما يطلب... لم يكتف بالاستسلام الكلامي، بل يريد منها إظهاره بالطريقة البدائية. نظرت إلى وجهه فالتقت بنظرة حادة كحد الموسى، خالية من الشعور، قاسية، فعرفت أنها إذا فشلت في الإذعان إليه الآن، فستودع مستقبلهما إلى الأبد.

لم يصدق شعورها تجاهه، منذ البداية، وقد زادته الظروف اقتناعاً كما زادته قساوة.. ولعل أسبابه وجيهة لأنه اعتبرها ساذجة.. لا يمكنها القيام بعلاقة راشدة.. وها هو يعطيها الفرصة الآن.. فرصة عليها التمسك بها.

ـ ماذا تريد؟ (سألته).

فابتسم:

ـ الفعل لورا. كنت بارعة دوماً في التحدث عن مشاعرك، لكن حين يصل الأمر إلى ترجمتها بالأفعال، ترتدّين متراجعة. أظهري حبك.

ـ حسن جداً...

حين نظرت إليه شاهدت في عينيه رغبة لم يستطع إخفاءها.

قالت له بنعومة:

ـ أنت بعيد عني.

ـ اقتربي إذن.

اوه... لن يهوّن عليها الأمر... حسناً.. تقدمت منه فأمسكت بكتفيه ثم جذبته بطريقة أخلّت بتوازنه وجعلته يقع عرض الفراش. تركته حركتها هذه يتوسد ذراعها... فتسارعت خفقات قلبها وسعت إليه واضعة خدها على رأسه هامسة:

ـ سايمون.. أنا بحاجة إليك... أرجوك لا تعدني ثانية إلى الظلام.

ـ أهكذا كان الأمر لك لورا؟ قلت إن استعادة ذاكرتك سوف يرميك بقوة إلى أسفل الهوة السوداء.

ـ لا بل.. بل السبب معرفتي بأنني خذلتك، فخسرتك.

خرجت منه الكلمات بقوة وعنف:

ـ آه يا إلهي!

واشتدت ذراعاه حولها بقوة لا تطاق.. لكنه أعرض بوجهه عنها.. لم يكن قد حلق ذقنه، لذا أصدرت لحيته النابتة صوتاً خشناً على بشرتها الرقيقة، لكنها لم تقل شيئاً، بل أبقته كما هو بين ذراعيها يرتجف قلبها تحت وجيف قلبه ارتجافاً.

قال لها:

ـ إذا قبلتك الآن، فلن أدعك ترحلين أبداً.. أتعتقدين أنك قادرة على تحمل عبء حياة كاملة معي لورا؟ لن أكون إلا متملكاً مجنوناً شرساً، فقد أنفث النار على رأس أي رجل ينظر إليك ويبتسم لك، لكن... سأبذل قصارى جهدي.. حتى أسعدك!

ـ وجودي معك وحده يسعدني.

ـ حتامَ لورا؟ حتى تخبو رغبتك، كما هو محتوم؟

ـ إذا خبا حبي حلّ مكانه أشياء أخرى... إذا تشاطرنا الحياة، سيولد بيننا روابط من نوع آخر، هي أقوى من هذه؟

لم يرد عليها.. بعد قليل قالت بائسة:

ـ أعرف أنك لا تحبني...

فقاطعها متنهداً:

ـ لورا... أيتها الغبية.. لقد وقعت في حبك منذ رأيتك أول مرة.. وقعت في غرامك كابن عشرين، رأساً على عقب.

حدقت فيه وهي لا تكاد تصدق ما تسمعه:

ـ لكنك لم تقل يوماً... أنت لم...

ـ بالطبع لم أقل شيئاً.. تحركي إلى أعلى السرير.

يجب أن تكون سعيدة.. ألم يقل لها ما تود سماعه؟ لكن حتى وهي تعود إلى الوسادة لتندس تحت الغطاء، وحتى وهو يتقدم ليندس قربها معانقاً إياها، كانت ما تزال مذهولة:

ـ لكن.. لماذا لم تبح لي بحبك؟

ـ لأنك ما كنت تشعرين بأحاسيسي ذاتها.

ـ بلى، كنت أحبك.. فعلاً!

هز رأسه:

ـ لا.. بل كانت رغبة.. وأنا لا ألومك عليها. لأنها الشعور

الوحيد الذي يسيطر على الفتاة في الثامنة عشرة من عمرها، كنت عنيدة مدللة، ومغرية، وأردتك أكثر من أي شيء آخر. لكنني ما كنت لأتزوجك لولا الجنون الذي استبد بك، كنت سأتريث حتى تمر مرحلة الجنون هذه، لكنني للأسف لم أطق الانتظار.

ما زالت لورا، غير قادرة على تصديق ما تسمع. كلامه واضح كل الوضوح ومع ذلك.. سألت بصوت خفيض:

ـ لكنك كنت عشيق كريستين.

ـ حتى التقيتك.

ـ لكنها.. قالت...

ـ حاولي أن تفهمي كيف كانت الأمور، بطريقة ما، كان علي أن أستوعب مشاعري نحوك.. فأنا لم أشعر بمثلها من قبل، بل لم يحدث أن شئت الزواج. لكنني حين رأيتك أردت الزواج منك لأحميك. كنت أعلم أنك سترتدّين عن حبي بسهولة، ثم كان أمامي كريستين، التي لم أرد إيلامها أكثر مما ينبغي.

ـ وحين هددت باللجوء إلى غيرك، أسرعت إلى إنقاذي.

ضحك:

ـ أجل، وحين ظهرت كريستين كجنية شريرة، فاض بي الكيل، خاصة وقد شاهدتك تصدقين كل ما تقوله. فكان أن أظهرت أسوأ ما فيّ من أخلاق.. فكلنا دخلنا يومها في وضع سنخرج منه خاسرين.

ـ وهذا ما حدث والشكر لغبائي.

ـ لا.. بل لغبائي أنا، لو لم أخرج ليلتها لاغتصبتك بالقوة، وكنت عندها دمرت كل فرصة لنجاح زواجنا.

فابتسمت ومررت يدها من كتفيه إلى صدره مداعبة، فأحست بتوتر جسده، وسمعته يتمتم ممسكاً يدها ليوقفها:

ـ شريرة. . . ! ثمة أمر آخر تريدين معرفته؟

ـ ماذا كنت تفعل مع كريستين حين قتلت؟

مررت أناملها على الجرح في كتفه.

ـ كنا معاً في حفلة، اوه. . ليس معاً. كانت مخدرة كما أعتقد فنقلتها معي بسيارتي إلى منزلها. . واعلمي أنني لم أذهب إليها ليلة زفافنا. . . لقد كذبت عليك. . تمشيت دون هدى في الشوارع وحين عدت لم أجدك!.

ـ اوه سايمون. . ظننت نفسي الوحيدة التي قاست. . أنا آسفة لكل شيء.

ـ لكنني لست آسفاً. . والله يعلم أن ما حدث كان غلطتي كما هو غلطتك. . كنا سنوفر علينا الكثير من العذاب لو كنت صريحاً معك. لكن، لدي مزاج مزعج شرير. يا حبيبتي، مزاج لن أعد بأن يتغير بين ليلة وضحاها.

ـ لا أريد منك أن تتغير، تعجبني كما أنت، وأحبك كما أنت. لكن لماذا كنت متباعداً عني. . حين استعدت ذاكرتي؟ لماذا؟

ـ أردت أن تحبيني. ليس لديك فكرة كم من الألم كنت أشعر به حين كنت تقاومينني، والخوف والغضب في عينيك. لكن كان لدي أمل. خشيت عودة ذاكرتك، لأنك قد تكرهينني، لذا جعلت من الصعب عليك مقاومتي.

فابتسمت:

ـ يا لك من شرير!

ـ ليس شريراً كما كان يجب أن أكون. لكن حين استعدت ذاكرتك عدنا إلى نقطة البداية، إلى الوراء. كرهتني واحتقرت نفسك. لذا أمهلتك بعض الوقت لتتغلبي على صدمتك، وأحببتك عندها أكثر من ذي قبل.

وضمها إليه بقوة آلمتها. . فسأل:

ـ هل آلمتك؟

ـ لا أبه.

فابتسم:

ـ حسناً. . هكذا هو الأمر. . كنت أريد استسلامك كاملاً. . فما فعلته ليس إلا نوعاً من الاختبار. أحسست أن الطريقة الوحيدة كي تبرهني فيها عن حبك هو أن تتخلي عن كبريائك كلها. كنت كمن يقامر، وكسبت. . . ويا لبهجتي وسروري، كدت أبكي بالأمس من الراحة حين شاهدتك نائمة هنا. لكنني نمت قربك فاستدرت واضجعت بين ذراعي فبدا أن أكثر أمر طبيعي في العالم هو أن أنام سامعاً أنفاسك شاعراً بدفء جسدك على جسدي.

ساد صمت طويل قبل أن تقول لورا:

ـ مع ذلك كنت متوحشاً معي حين أيقظتني.

ـ يحضر الصباح معه كالعادة الظنون. . وقد أردت أن أرى إن كنت تعرفين ما تفعلين.

راح يبحث في درج الطاولة قرب السرير، فاستلقت لورا دون حراك، ترتجف حتى أعمق أعماقها من قربه منها. . بدت قسمات وجهه المتعجرف القاسي قد تغيرت وكأنه عرضة للخطر. . إن هذا مخالف للقواعد كلها. . سايمون عرضة للخطر؟ لكنه هكذا. . وعرفت عندئذ مدى حبه لها. . أخافتها روعة المجد، وجعلتها متواضعة حتى كادت تبكي.

قال:

ـ هاك. . .

كان في يده خاتماً ذهبياً، قدمه لها منذ سنتين. خاتم جعلته أشعة الصباح يومض ويبرق.

ـ حين وضعت ذلك الخاتم الزمردي في يدك يوم كنت في المحل أملت أن أثير فيك الذكرى.. فاشتريته لأنه أعجبني.

ـ أين هو؟

ووضعه قرب الآخر:

ـ إذا لم يعجبك نستبدله.

ـ بل أحبه.

ووضعت خدها عليه لتكشف عمق تأثرها.

ـ اوه.. يا إلهي سايمون. لا تتركني ثانية... فلن أقوى صبراً.

استلقى فوق الوسادة، جاذباً إياها حتى تستلقي معه، ثم مرر اصبعه على ثنايا وجهها الجميل وهمس:

ـ لن أتركك مرة أخرى.. أعدك بأني لن أتركك.

فهمست:

ـ أحبك.

ـ وأنا أموت بك حباً.

وعندما احتواها بين ذراعيه لم تعد تريد إلا أن تهب وتهب لتعوض سنوات الحرمان.. وكان يأخذ منها بحرارة حباً لم يعد مضطر إلى إخفائه.

وكما يحدث دائماً.. كان يعطيها بمقدار ما تعطيه.

* * *